

السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية

1844 - 1916

إعداد

الدكتور عميراوي احميده الأستاذ زاوية سليم

الأستاذ قاصري محمد السعيد

دار الهدى

عين مليلة – الجزائر

السياسة الفرنسية
في الصحراء الجزائرية

(1844 - 1916)

إعـــداد

الدكتور عميراوي احميده   الأستاذ زاوية سليم

الأستاذ قاصري محمد السعيد

دار الهدى
عين مليلة – الجزائر

دار الهدى
للطباعة والنشر والتوزيع
المنطقة الصناعية ص ب 193 عين مليلة - الجزائر
الهاتف: 032.44.92.00 / 032.44.95.47
الفاكس: 032.44.94.18
web: www.elhouda.com
e-mail: darelhouda@yahoo.fr

الفروع

مكتبة وراقة شركة دار الهدى: طريق باتنة
عين مليلة
الهاتف: 030.34.46.85 الفاكس: 030.34.46.84

مكتبة وراقة شركة دار الهدى: حي كوحيل لخضر جنان الزيتون
قسنطينة
الهاتف: 031.92.22.08 الفاكس: 031.92.27.08

مكتبة وراقة شركة دار الهدى: 01 شارع أوراس بشير باب الواد
الجزائر
الهاتف: 021.96.62.20 الفاكس: 021.96.61.11

مكتبة وراقة شركة دار الهدى: 02 شارع أحمد محند الحراش
الجزائر
تلفاكس : 021.52.13.07

مكتبة وراقة شركة دار الهدى: 05 شارع زيغود يوسف عمارة الحرية
وهران
الهاتف: 041.40.46.89/041.40.46.47
الفاكس: 041.41.46.54

الرقم التسلسلي 144 - 2009 دار الهدى
رقم الإيداع القانوني 5139 - 2009 المكتبة الوطنية
ردمك 1 - 219 - 26 - 9947 - 978

تم السحب بمطبعة دار الهدى
2009

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

بمشيئة الله تبارك وتعالى، وبتضافر جهود أعضاء الفرقة، وبتشجيع من رئيس الجامعة الدكتور عبد الله بوخلخال، ومن عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية الدكتور أحمد صاري تم إنجاز هذا العمل العلمي ذي العنوان «السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية (1844 - 1916)» الذي تضمن خمسة فصول هي:

_ الفصل الأول: جغرافية الصحراء. عالجنا فيه جوانب من الحياة الاجتماعية المتعلقة بسكان بعض المناطق في الجنوب الجزائري. وبمميزات الوسط الطبيعي الصحراوي. وبالتعمير الاستيطاني في الصحراء الجزائرية.

- الفصل الثاني: أبعاد الاستعمار الأوروبي في الجنوب الجزائري. تحدثنا فيه عن الظاهرة الاستعمارية في الجزائر. وعن بداية الاهتمام الأوروبي بالصحراء الجزائرية.

- أما الفصل الثالث: التوسع العسكري الفرنسي في الصحراء الجزائرية (1844 - 1914) فقد خصصناه للقسم الأوسط، والشرقي، والغربي الجنوبي

للصحراء الجزائرية. مع إبراز أهم المعارك في هذه الأقسام وأهم مشاريع التوسع الفرنسي فيها.

- الفصل الرابع: التنصير في الجزائر. بينا فيه مفهوم التنصير والتبشير. ودور كل من الكاردينال لافيجري الأب شارل دي فوكو. في تنصير أبناء الجزائر.

- الفصل الخامس: نتائج سياسة التوسع في الصحراء الجزائرية. رصدنا في هذا الفصل أهم النتائج العسكرية، والاقتصادية، والاجتماعية التي تولدت عن السياسة الفرنسية في الجنوب الجزائري.

فهذا العمل يعد ثمرة جهد ينشره مخبر الدراسات الأدبية والإنسانية ونأمل أن تنشر الأعمال الأخرى ليستفيد منها الخاص والعام.



قائمة المحتويات

الفصل الأول

جغرافية الصحراء

الفصل الثاني

أبعاد الاستعمار الأوروبي في الجنوب الجزائري

الفصل الثالث

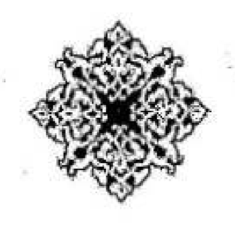
التوسع العسكري الفرنسي في الصحراء الجزائرية (1844 - 1914)

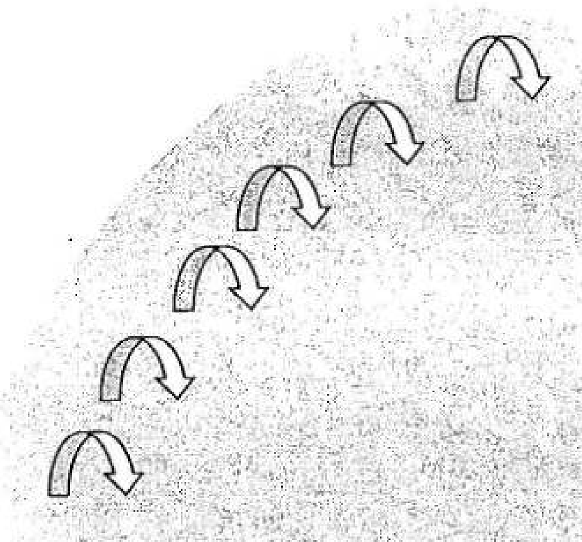
الفصل الرابع

التنصير في الجزائر

الفصل الخامس

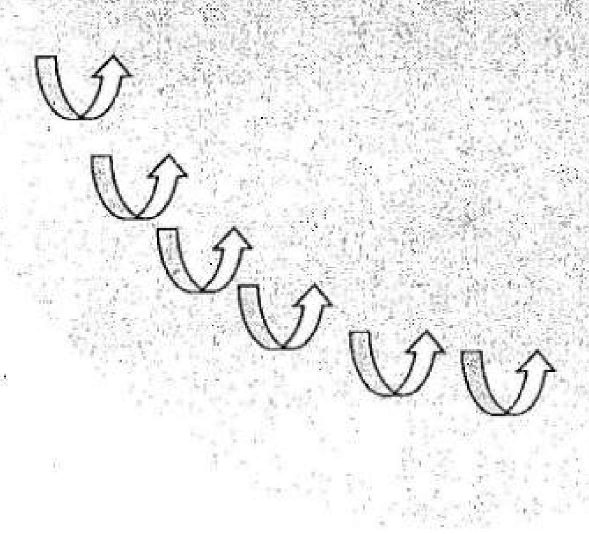
نتائج سياسة التوسع في الصحراء الجزائرية





الفصل الأول

جغرافية الصحراء



1 – سكان بعض المناطق في الجنوب:

يتميز سكان الجنوب الجزائري بخصائص اجتماعية تختلف عن خصائص سكان الشمال الجزائري. وأهمّ ميزة أنه مجتمع قبلي، أغلبه رحل. ويتبين من خلال بعض الإحصاءات، ومنها إحصاءات المصادر الفرنسية[1] أن عدد السكان بالصحراء الشرقية والوسطى كان 450000 نسمة عام (18(. وكان سكان لصحراء الشرقية يتوزعون كالآتي:

أسماء النواحي	مدن وقرى	قبائل وأعراش	سكان مستقرون	سكان رحل	مجموع السكان
ورقلة	7	3	14200	12000	26200
تماسين	16	2	9950	12600	22550
وادي ريغ	36	2	31080	2850	33930
وادي سوف	8	5	31170	1200	32370
الزيبان	37	18	30340	55300	85640
الوطاية	3	2	800	11850	12650
الحضنة	6	11	11500	34650	46150
المجموع	**113**	**43**	**129040**	**130450**	**259490**

وكانت ورقلة[2] من المدن الصحراوية التي لعبت الدور الأساس في أهم الأحداث التاريخية في الجنوب الجزائري. نظرا لتوطن تشكيلات اجتماعية قوية فيها.

---

1 – ينظر A M G H 227

2 – فيما يخص هذه المدينة التي تنسب إلى أبي يوسف الورجلاني، يستحسن مراجعة العدد الخاص من مجلة الأصالة، العدد 41، الصادرة عن وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر 1977، وقد توسط موقع ورقلة أهم المدن الصحراوية منها تماسين وتوقرت والأغواط وبسكرة. وتبعد عن الجزائر العاصمة بـ 800 كلم.

2 – مميزات الوسط الطبيعي الصحراوي:

2 – 1 – حدود إقليم الصحراء:

يعد الجنوب الجزائري جزءا من الصحراء الكبرى الأفريقية التي تمتد من المحيط الأطلسي غربا إلى البحر الأحمر شرقا، ومن جبال الأطلسي شمالا إلى بلدان الساحل جنوبا. وتغطي الصحراء الكبرى مساحة ثمانية ملايين كلم^2. يشترك فيها كل من جنوب المغرب والجزائر وتونس وليبيا وشمال مصر وغرب موريطانيا ومالي والنيجر والتشاد وجنوب السودان[1].

أما مساحة الصحراء الجزائرية فتبلغ 1987600كلم^2، وبذلك تحتل مساحة واسعة تجاوزت نسبتها 90%، من مساحة القطر الجزائري.

والصحراء في تركيبها الجغرافي أبسط من المنطقة التلية[2]، إذ لا نجد بها الجبال المتقطعة، ولا المرتفعات المعقدة ولا السهول الضيقة المحصورة، ولا الإلتواءات الحديثة، ولكن نجد السهول التحاتية الواسعة، والأحواض المغلقة، والجبال بحافاتها الشديدة الانحدار، والعروق الرملية المتنقلة[3].

2 – 2 التضاريس:

يتميز سطح الصحراء ببنية تضاريسية بسيطة ومتنوعة في أشكالها المورفولوجية والتي تبرز في الوحدات الأربع الأساسية الآتية:

• **الصحراء المنخفضة:** تتمركز الصحراء المنخفضة في الجزء الشمالي الشرقي وتتميز بمنخفض يقل بـــ 31 مترا عن مستوى سطح البحر، بينما الأراضي المجاورة لا يزيد سطحها على ارتفاع مائتي مترا. ولهذه الأراضي أهمية اقتصادية تتمثل في

1- Dictionnaire universel des noms propres le petit Robert paris 1981 P 1617.

2 – ينظر خريطة رقم 1

3 - عبد القادر حليمي: جغرافية الجزائر طبيعية، بشرية إقتصادية. ط 1968 I ص: 56.

انتشار الواحات، منها واحات الزيبان شمالا، وواحات وادي سوف، ووادي ريغ جنوبا كما أنها تزخر بكميات معتبرة من المياه الجوفية والبترول.

❁**السهول الرملية**: تحتل مساحات واسعة من الصحراء وتتمثل في العرق الشرقي الكبير والعرق الغربي الكبير، إلى جانب عروق أخرى ثانوية كعرق الشاش وايقدي والراوي وغيرها. كذلك تتمثل في تضاريس الرق وهي صحراء حصوية تكاد تكون خالية من مظاهرالحياة مثل رق تانزووفت.

❁**الهضاب الصحراوية**: وهي في معظمها ذات تكوينات صخرية جيرية، ومنها هضبة الحمادة التي تمتد في الجزء الشمالي من الصحراء إلى الجنوب من السلسلة الأطلسية، وهضبة تادمايت الكريتاسية الفسيحة والممتدة في وسط الصحراء بين دائرتي عرض 27^{o} و30^{o} شمالا، وترتفع إلى علو يناهز 600 متر، وقد غطتها على امتداد مئات الكيلومترات من الشمال إلى الجنوب طبقة من اللوم الأحمر القديم، ويعلوها غطاء صحراوي حديث أثرت فيه إلى حد كبير الرياح وإن كانت تدفقات السيول قد شاركت في تكوينه.

❁**المرتفعات القديمة**: تتمركز في الوسط بالجنوب الشرقي وتمثلها منطقة التاسيلي، ومنطقة الهقار. فالأولى عبارة عن صخور من صلصال الرمل شاهقة ومتقطعة، أصبحت تعد من أهم سجلات التراث الإنساني في العالم بعد العثور بها على أقدم الرسومات المعبرة عن حياة ومناخ المنطقة في القدم.

أما الثانية فهي مرتفعات واسعة المساحة حوالي 5000 كلم^2 معظمها من الصخور القديمة البركانية التي تعرضت إلى عملية الحت، ورغم ذلك لا تزال بها قمم عالية تقارب 3000 مترا، كقمة تاهات التي تبلغ 2918 متر وهي أعلى قمة جبلية في الجزائر[1].

---

1 – جيلاني صاري: دور البيئة في الجزائر. ط1 الجزائر 1983 ص -- ص: 18 – 20.

2 – 3 المناخ:

لقد كان للوضع الجغرافي انعكاس مباشر على مناخ الصحراء، حيث يسودها مناخ قاري قارس في فصل الصيف حيث ترتفع درجة الحرارة إلى +50° في الظل، وقد تصل بمدينة أدرار أو عين صالح إلى +45°، كما تنخفض في الشتاء إلى درجة الصفر، وبهذا يكون المدى الحراري السنوي كبيرا جدا بالإضافة إلى ذلك تتعرض الصحراء إلى هبوب رياح جافة وفي بعض الأحيان متميزة بعواصف هوجاء من الرمال تعرقل جميع أنواع النشاط البشري.

وتتميز بندرة الأمطار وعدم انتظامها حيث لا يزيد متوسطها السنوي عن 200 ملم. وترتفع على الهوامش الشمالية وقمم المرتفعات ما بين 50 — 200 ملم[1]، وتتراجع إلى ما دون 50 ملم في باقي المناطق، وتعود ظاهرة الجفاف في الصحراء إلى كونها تقع في المنطقة المدارية التي تهب عليها الرياح القادمة من خط الاستواء، وبالتالي فهي منطقة ضغط مرتفع ومصدر للرياح التجارية التي تهب من الصحراء نحو المناطق الاستوائية، وهي رياح جافة ولا تسبب نزول الأمطار لأنها تتحرك على سطح يابس.

تقع الصحراء بين الإقليم السوداني في الجنوب والإقليم الإستبسي في الشمال، فشمال الصحراء تتسلل إليه الرياح الغربية والشمالية الغربية في فصل الشتاء فتسقط الأمطار على الهوامش الشمالية أما الجنوب فأمطاره ترتبط بأمطار المنطقة المدارية التي تتميز بفصلين متباينين، هما الصيف الممطر والشتاء الجاف.

وبذلك نجد أن للمطر الصحراوي فترتين إحداهما تبتدىء من شهر نوفمبر إلى غاية شهر جانفي عندما تهب الرياح الشمالية الغربية الممطرة على الهوامش

1 – خريطة رقم 2

الشمالية، أما الثانية فتبتديء من شهر ماي إلى شهر سبتمبر وذلك عندما تهب الرياح الموسمية على الهوامش الجنوبية[1].

إذن فظاهرة الجفاف السائدة في الصحراء تعود إلى الارتفاع الكبير لدرجات الحرارة مقارنة مع النقص في تساقط الأمطار، وهذا ما يوضحه مخطط قوسن (العلاقة بين الحرارة والأمطار) لمحطة تامنغست[2] التي تمثل نظام مناخ المناطق الجنوبية، إذ نجد الفارق كبيرا بين الأمطار والحرارة، الأمر الذي يكون هو سبب تمديد فصل الجفاف.

فالحرارة تبدأ في الارتفاع منذ الشهر الثالث لتصل إلى أقصاها في الشهر السابع والثامن متجاوزة 30° كمتوسط، ثم تبدأ في التراجع إلى حدود 15°، بينما الأمطار قليلة ما عدا في الفترة الممتدة ما بين ماي إلى سبتمبر حيث يتراوح المتوسط المطري ما بين 50 — 120 ملم.

ومحطة بسكرة[3] التي تمثل نظام مناخ المناطق الشمالية للصحراء تزداد فيها كمية الأمطار في فصل الشتاء بين شهر أكتوبر وشهر أفريل لتقل في فصل الصيف خاصة في ماي، وجوان، وجويلية وأوت، في المقابل ترتفع درجات الحرارة ما بين مارس وأكتوبر ليتسع فيها الجفاف، في حين تكون فترة الرطوبة ما بين نوفمبر إلى مارس حيث تزداد الأمطار وتقل الحرارة.

وكان لهذا المناخ دور كبير في سير الأحداث التاريخية وفي السياسة الفرنسية التي كانت تختلف عما عرفه الشمال من أحداث تاريخية.

---

1 — إبراهيم مباسي: توسع الاستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي. ماجستير في التاريخ المعاصر. معهد التاريخ. جامعة الجزائر العاصمة. 1986/ 1987 ص. 13

2– خريطة رقم 3

3 — خريطة رقم 4

2 – 4 – الأودية والموارد المائية:

شبكة الأودية: تنبع الأودية الصحراوية من الأطلس الصحراوي وتصب أحيانا في الشطوط وأحيانا تختفي في وسط الرمال، ليس لها جوانب مضبوطة ولا حدود معينة، فهي عديمة الانتظام وفجائية الفيضان.

وتنقسم الأودية الصحراوية حسب مناطق منابعها إلى أودية السفوح الجنوبية للأطلس الصحراوي، وأودية الهقار. فأما الأولى فتسير على طول السفوح الجنوبية لجبال الأطلس الصحراوي وتغوص مياهها في الرمال لتظهر مرة أخرى في شكل عيون فيضية أو آبار ارتوازية قامت عليها واحات النخيل في إقليم مزاب في الهوامش الشمالية. ومن أهم هذه الأودية: وادي جدى، وادي الطويل، وادي العرب ووادي الأبيض وكلهم يصبون في منخفض ملغيغ وهو شط واسع الأرجاء تحيط به الكثبان الرملية وتظهر على حوافه النباتات الصحراوية المتنوعة، وتغمره المياه في فصل الشتاء، بالإضافة إلى ذلك نجد أودية الجهة الجنوبية الغربية مثل وادي زرقون، وادي سوقر، وادي الناموس ووادي الساورة.أما الأودية المنحدرة من جبال الهقار فتظهر في شكل شبكة منحدرة في عدة اتجاهات أهمها: وادي تافاساست الذي يربط الهقار ودولة النيجر[1].

تتوفر الصحراء على موارد مائية معتبرة لا سيما في الجزء الأكبر من باطنها، والأكثر أهمية هي الاحتياطات المائية الكامنة في الأحواض الثنائية والثلاثية الشاسعة والممتدة بين الكتل الجبلية[2].

ومن بينها الحوض الترسيبي للصحراء المنخفضة في الركن الشمالي الشرقي الذي يختزن كميات هائلة من المياه قدرت بحوالي 60000 مليار متر مكعب، ويتألف من سمطين مركبين، الأول إرتوازي سطحي متجدد يعرف بالقاري النهائي

---

1 – عبد القادر حليمي: مرجع سابق. ص 88.
2 -- خريطة رقم 5

«Continental terminal» والمتمركز في وادي ريغ، ويتغذى من السيول الصحراوية الممتدة على طول الحواف الصخرية المحيطة بالعرق الشرقي.

أما الثاني فهو القاري المتداخل« Continental intercalaire » والمتواجد في أعماق سحيقة تتراوح ما بين 800 – 1500 متر ويتزود من السيول الحاصلة على الأطلس الصحراوي والهضاب العليا[1].

وقد وظف الاستعمار الاستيطاني وسيلة الماء في كسب صفوف جزائرية، من ذلك ما حدث حين أقدمت السلطة الفرنسية على حفر الآبار في أول ماي 1856 بأمر من علي بن فرحات قائد توقورت، وبمساعدة الجنرال ديفو وتحت إدارة المهندس (Jus) وتم استخراج الماء من عمق 60 متر، الأمر الذي ولد فرحة عمت السكان وقيل شعر بهذه المناسبة ترجمه فيرو إلى اللغة الفرنسية بهذه الصيغة:

Je vous annonce des choses merveilleuses

L'eau a jailli du sein des sables

Dieu a donné l'eau au Sahara

Par l'intermédiaire de celui qui gouverne actuellement

وقال الفرنسيون إنه باكتشاف الماء تكون البداية القوية لإقامة إدارة فرنسية بالصحراء بدايتها ورقلة ذات الصلة ببسكرة. وستكون ورقلة سوقا تجارية هامة للأوروبيين والعرب والميزابيين والسود واليهود. وكان عدد النخيل بالصحراء من بسكرة إلى ورقلة، الذي كان 198008 نخلة تنتج ما قيمته 30244470 كلغ. وكان سعر الكلغ بـــ 0.35 فرنك وكان محصول الحبوب من شعير وقمح بـــ 814820 كلغ. وكان عدد المنازل من بسكرة إلى ورقلة في السبعينيات 15090 منزلاً. وعدد

1 - coté Mac: l'espace algérien o p u 1983 p 245

الآبار 5262 بئرًا. وكان بتوقورت ووادي ريغ 2878 مترلاً و 90000 شجرة مثمرة[1].

بالإضافة إلى ذلك تأتي المياه السطحية بفضل مجاري المياه المنحدرة من الأطلس الصحراوي والنظام النهري لكل من الأودية الآتية: وادي قير، وادي الساورة، وادي الأبيض بنواحي بسكرة ووادي مزي بناحية الأغواط [2].

2 – 5 – الغطاء النباتي:

لقد كان لظروف المناخ في الصحراء انعكاس مباشر على لحياة النباتية التي تتميز بالضآلة وتحملها للجفاف والحرارة المرتفعة والبرودة الشديدة، في الوقت نفسه يوجد في الصحراء الجزائرية حوالي 500 نوع من النباتات التي هي على العموم قصيرة وسميكة.

بالإضافة إلى ثروة حيوانية تتكون من الغزلان وذئاب الرمال ومجموعات من الجردان والآفاعي والزواحف المتنوعة والطيور.[3]

---

1 - عميراوي احميدة، محاضرات في تاريخ الجزائر، مطبوعات جامعة منتوري – قسنطينة 1999، ص – ص 184 – 199.

2 – المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954: فصل الصحراء في السياسة الاستعمارية الفرنسية، سلسلة الملتقيات ص 30.

3 - Grande encyclopédie tome XXIX paris p 66

3- التعمير الاستيطاني في الصحراء الجزائرية:

3 - 1 - سياسة توغل الاستعمار:

3- 1- 1 منافذ التوغل والسيطرة:

في الوقت الذي كان فيه الفرنسيون جادين في الغزو والتوسع إلى الجنوب الجزائري والصحراء، كان اهتمامهم كبيرا بموضوع المواصلات وطرق القوافل القديمة باعتبارهما العنصر الأساس والفعال وذلك بهدف:

- تسهيل عمليات نقل قواتهم العسكرية الغازية، وتوفير ظروف الاستقرار في المراكز العسكرية التي أنشأوها.
- ربط مستعمراتهم المختلفة ببعضها البعض في الشمال والغرب والوسط.
- خدمة التجارة الفرنسية وفتح الأبواب والسبل لها في كل أسواق إفريقيا[1].

وعلى ضوء ما تعرفوا عليه من طرق القوافل الصحراوية القديمة، وما توصلت إليه البعثات الاستكشافية التي كانوا يرسلونها إلى الجنوب[2]، توغلوا إلى الصحراء الجزائرية عبر منافذ وطرق رئيسة[3] لإحكام السيطرة عليها،وتشكيل شبكة استراتيجية من المراكز العسكرية،وأهم هذه المنافذ نجد ما يلي:

⊙طريق آغادير – داكار عابرا كل من تندوف، فور قيرو Fort Gairaud أكجوجت ليتوجه نحو نواقشوط ليصل إلى سان لويس بالسينغال على مسافة طولها 3000 كلم.

---

1 – يحي بوعزيز: ثورة الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين. ط 1 دار البعث قسنطينة 1980 ص 270

2 – لمزيد من المعلومات عن حركة التوغل في الصحراء والبعثات الاستكشافية يراجع: عميراوي احميدة، من الملتقيات التاريخية، دار البعث – قسنطينة 2001، ص – ص 151 – 173.

3 – خريطة رقم 6

* طريق وهران – النيجر الذي يخترق في مساره البالغ أكثر من 2800 كلم نحو الجنوب الجزائري كل من بشار كولمب، العبادلة، إجلي، بني عباس، أدرار، رقان وبيدو وغاو، لينتهي في دولة النيجر. وقد كان هذا التوغل سببا في إنجاز مشاريع اقتصادية هامة منها منطقة صناعية بكولمب كولومب، وخط مزدوج للسكة الحديدية طوله 100 كلم يربط بين العبادلة وكولمب بشار.

* طريق مدينة الجزائر – تمبوكتو الذي يتجاوز طوله 3500 كلم ويمر على البليدة، بوغار، الأغواط، غرداية، القليعة وعين صالح ليصل إلى تامنغاست ثم آقار لينتهي زندار التي تقع بين دولة النيجر ودولة التشاد.

* طريق بون – مورزوق بليبيا والذي يعبر قسنطينة بالهضاب العليا ثم قطع الواحات الصحراوية توقرت، الوادي، ورقلة وجنات ليتحول نحو فزان بليبيا.

* الطريق العرضي شرق غرب.

يعد اكتشاف البترول في آبار ادجلي وحاسي مسعود قدم هذا الطريق خدمات كبيرة للتوغل والتوسع الاستعماري في الصحراء واحتلاله لأهم المناطق الإستيراتيجية. لأن هذا الطريق يقطع من الشرق إلى الغرب، ومن الهقار إلى الأطلسي، ومن جنات إلى تندوف عبر ورقلة وفور فلاتر، القليعة، تيميمون وأدرار[1].

1 - Max Marchand:Histoire Abrégée de l'Algérie partie SAHARA Mars 1957 p 12 – 13.

3 – 2 – مشاريع خطوط السكك الحديدية:

لقد كانت خلاصة الدراسات والاقتراحات لمشاريع عديدة أن تم مد السكة الحديدية نحو الصحراء خلال النصف الأول من القرن العشرين، ووضع نواة لثلاثة خطوط حديدية نحو أعماق الصحراء تفرعت أساسا من الخط العرضي الرئيسي الذي يخترق الشمال الإفريقي من تونس شرقا إلى الدار البيضاء غربا. وقد كان وراء هذه المشاريع من مواصلات حديدية رجال التيار السان سيموني الذين كانوا على مبدأ ربط القارات ببعضها ليحدث التواصل بين الشعوب بغض النظر عن اختلاف ثقافاتها[1]. (سنعود للحديث عن خطوط السكك الحديدية في الفصل الثالث) وكانت الخطوط كالآتي:[2]

- الخط الأول يمتد من مدينة قسنطينة إلى ورقلة عبر بسكرة وتوقرت.
- الخط الثاني يمتد من مدينة البليدة إلى الجلفة عبر المدية.
- الخط الثالث يمتد من المحمدية إلى بني عباس عبر سعيدة وبشار.

وقد كان من المفروض أن تمتد هذه الخطوط الثلاثة إلى باقي بلدان الصحراء الأخرى في غرب إفريقيا ووسطها لتصل بشبكة النيجر عبر تمبوكتو، وشبكة السينغال وموريطانيا، ولكن ارتفاع التكاليف المالية ووعورة الطبيعة الصحراوية وقساوة مناخها، واتساع المقاومة الجزائرية وتطور حركة الطيران جعلت الفرنسيين يتراجعون عنها[3].

---

1 – يراجع: عميراوي احميدة، من تاريخ الجزائر الحديث، مطبوعات جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة 2000

2 - Max Marchand: o p cit p 272

3 - ينظر خريطة رقم 8.

3 – 3 – شبكة المدن والواحات الصحراوية:

رغم اتساع وعزلة الصحراء الجزائرية، إلا أنها مهيكلة بشبكة معتبرة من المدن والمراكز والواحات ذات الأهمية الاستراتيجية القصوى بالنسبة للاستعمار الفرنسي لتوغله وإحكام السيطرة التامة عليه.

وتتركب هذه الشبكة من مدن وواحات تعتبر عواصم لأقاليم طبيعية كالزيبان وبني مزاب ووادي سوف والساورة والهقار، وهي مدن آهلة بالسكان تتفاوت ما بين 15000 — 40000 نسمة. وأهم هذه المدن:

•مدينة بسكرة، وهي بوابة الجنوب القسنطيني نحو الصحراء المنخفضة وعاصمة الزيبان تعد من أهم المدن الصحراوية المكتظة بالسكان وهي مدينة النخيل والجمال السحري البديع مركز من أهم مراكز النهضة.ومحور تجارة التمور ومحط رحال السياح.

•مدينة الواد أهم وأشهر مدن وادي سوف وهي تبعد فقط بـ 100 كلم عن الحدود الجزائرية التونسية وتشتهر باسم مدينة الألف قبة " La ville aux mille coupoles" يقدر عدد سكانها في حدود 20000 نسمة.

• مدن الجلفة والأغواط وهي عبارة عن أبواب أساسية للجزائر الوسطى نحو الصحراء، ومراكز استعمارية صحراوية هامة في التوغل نحو الجنوب الجزائري، ويقدر عدد سكانها ما بين 25000 — 17000 نسمة.

• مدينة غرداية عاصمة المزاب تبعد عن الجزائر العاصمة بحوالي 600 كلم وهي حاضرة هامة آهلة بالسكان بلغ عددهم حوالي 15000 — 20000 نسمة.

• مدينة توقرت عاصمة طبيعية لمنطقة وادي قير وهي الأكثر سكانا في الصحراء بحوالي 40000 نسمة.

• مدينة كولومب بشار: لقد سميت، مدينة كولمب بشار من طرف العالم Jonnart سنة 1903 عندما أسمى المركز العسكري تاقدا Tagda القريب من جبل

بشار بكولمب تذكرا للجنرال colomb وزاد من أهميتها اكتشاف مناجم معدنية ذات احتياطات عالمية من الحديد والنحاس والفوسفات والرصاص.

- مدينة تامنغست عاصمة الهقار ومقر نشاط الأب فوكو ومكان قتله سنة 1916[1].

أكبر الواحات الصحراوية:

- بالإضافة إلى المدن الصحراوية نجد مجموعة هامة من الواحات أقل سكانا وأهمية من الناحية الاستراتيجية أهمها:
- واحة بوسعادة وهي أولى الواحات في ناحية الشمال، تقع ما بين شط الحضنة وجبال أولاد نايل.
- واحة تيميمون الواحة الحمراء وعاصمة قورارة تقع ما بين أدرار والقليعة.
- واحة ورقلة: واحة الصحراء المنخفضة الممتدة بين العرق الشرقي الكبير وشط ملغيغ وهي آخر واحات الجزائر الجنوبية قبل الهقار وسكانها حوالي 7000 نسمة.
- واحات الزيبان الغنية أمثالها سيدي عقبة، طولقة وأولاد جلال.
- واحة عين بلاد الشبكة ومن أهمها غرداية وبني يزقن والقرارة وبريان ومتليلي وهي تتميز بكثرة العمران وقلة المياه.
- واحة خبات الواقعة بين الهقار وهضبة تاسيلي أجير Ajjers بالقرب من فزان الليبية.
- واحة القليعة واحة قليلة السكان ومكان تواجد ضريح الأب فوكو.
- واحة أدرار عاصمة التوات وتبعد عن وهران بـ 1300 كلم.
- واحة بني عباس.

1 - Max Marchand: op cit p 9 - 10 - 11

- واحة عين صالح.
- واحة حاسي مسعود.
- واحة رقان.

3 – 4 – الإمكانات الاقتصادية للصحراء:

الصحراء جغرافية شاسعة وفسيحة، ومناخ قاسي وعزلة محكمة إلا أنها تزخر بإمكانات وقدرات طبيعية واقتصادية هائلة ومتنوعة منها المعادن، البترول والغاز الطبيعي والفلاحة[1].

3 – 4 – 1 المعادن:

لقد تم اكتشاف خزانات معدنية هائلة ومتنوعة في مناطق مختلفة من الصحراء وهي على النحو الآتي:

- منطقة بشار كولمب تتوفر هذه المنطقة المحصورة في أقصى الركن الشمالي الغربي للصحراء مع الحدود المغربية على ثروة معدنية ضخمة وذات بعد عالمي منها:

– مناجم الفحم الحجري في القنادسة وكيس كسو.

– مناجم الحديد بالعبادلة.

– مناجم المنغنيز والنحاس بجبل بوعرفة.

– مناجم الرصاص بالقرب من مفيس MIFIS

- منطقة تندوف التي تضم مكامن ضخمة من الحديد والفحم الحجري والرصاص قدرت احتياطاتها آنذاك بحوالي 3 ملايير طن[2].

1- ينظر خريطة رقم 9

2 – عبد القادر حليمي نفس المرجع ص 16.

3 – 4 – 2 البترول:

لقد بدأ الفرنسيون يعطون أهمية كبرى للصحراء بعد اكتشاف المعادن وخاصة البترول والغاز الطبيعي. واعتبر الفرنسيون في الخمسينيات من القرن 20 أن المعجزة ستكون من الصحراوية.

ومن أهم آبار البترول حاسي مسعود جنوب ورقلة. ثم آبار ايدجلي éedjel وثيقنتورين وفورفلاتر Forflatters نحو الحدود الليبية.

آبار الغاز الطبيعي بالقرب من غرداية بمنطقة بريان وهو حاسي الرمل وبني تلرام.

آبار واحات الوسط خاصة آبار عين صالح أحنات وبوقا. كل هذه الطاقة كانت تحول نحو ميناء الجزائر العاصمة[1].

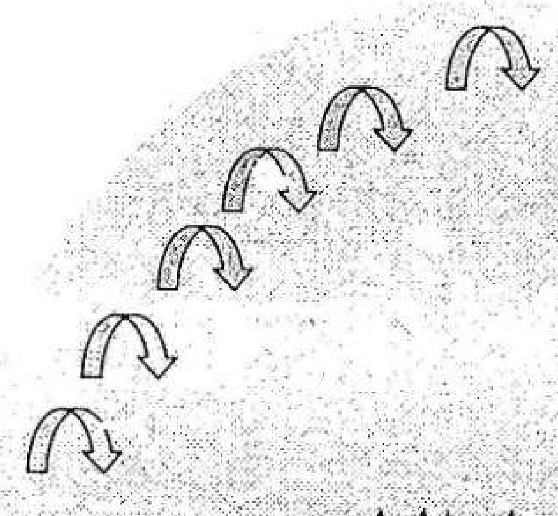
3 – 4 – 3 الفلاحة الصحراوية:

تزخر الصحراء الجزائرية بمحيطات زراعية هامة تشتهر بواحات النخيل[2]، كواحات الزاب الشرقي والغربي ووادي سوف، كما هو الحال في طولقة وبن نوي. بالإضافة إلى بعض السهول الخصبة ذات الزراعات المتنوعة مثل سهل العبادلة ببشار، سهل أدرار وسهل تامنراست.

---

1 – ANDRE LABARTHE: Document sur le pétrole du sahara 1957 p 98

2 – ينظر خريطة رقم 10

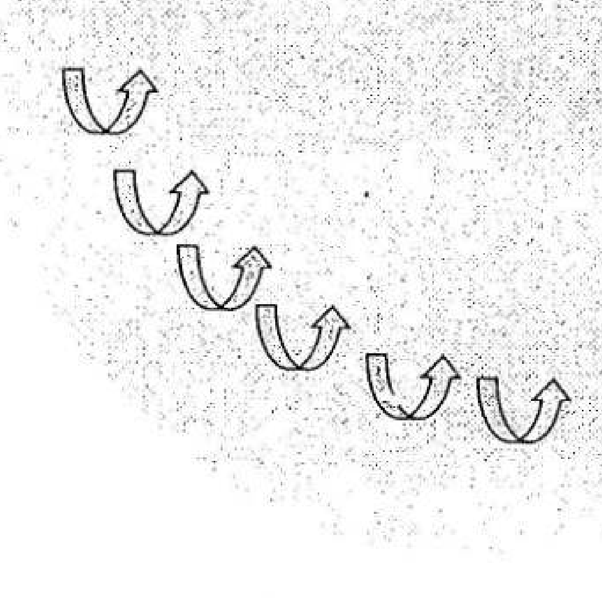


الفصل الثاني

أبعاد الاستعمار الأوروبي

في

الجنوب الجزائري



1 - الظاهرة الاستعمارية في الجزائر:

في تاريخ الصحراء الجزائرية أحداث كثيرة بكثرة رمالها. ومن أهم مراحل هذا التاريخ مرحلة التوسع الاستعماري الفرنسي. لأن السياسة الفرنسية في الصحراء منذ بدايتها إلى نهايتها كانت تهدف إلى فصل الجنوب الجزائري عن الشمال، وإخضاعه إلى نظام إداري عسكري متميز بهدف التوسع في إفريقيا جنوبا، ومنافسة الدول الأوروبية بتكوين مواطن نفوذ لها.

ونلمس هذه السياسة في ما اتبعته فرنسا من حملات عسكرية وجهتها إلى أنحاء البلاد بما فيها الصحراء الجزائرية. وفي ما قامت به من ملاحقات واعتقال ونفي وسجن في حق من عارض هذه السياسة.

وكان اهتمام الفرنسيين بالصحراء ضمن الاهتمام الأوروبي بها، ويعتبر سقوط واحة الزعاطشة في يد السلطة الفرنسية إثر الحملة العسكرية يوم 24 سبتمبر عام 1849 بداية الدخول الفرنسي القوي إلى الصحراء، بعد احتلال باتنة وبسكرة عام 1844[1].

وبجانب هذه الحملات العسكرية كان الاهتمام العلمي الاستكشافي الفرنسي هو الآخر كبيرا بالصحراء. والسؤال الذي يمكن طرحه هو ما هي أبعاد الاستعمار الأوروبي في الجزائر عامة، وفي الجنوب الجزائري خاصة؟

1 - كانت الحملة بقيادة سان جرمان. وكان عدد القتلى من الفرنسيين 164 منهم 9 ضباط وعدد الجرحى 671 وفي صف العدو عدد كبير

من المتعارف عليه أن للاستعمار أشكالا جرت العادة على تصنيف بعضها بالاستعمار التقليدي الذي قام على استغلال الثروة المعدنية والبشرية من دون الاستيلاء على الأرض. والاستعمار الاستيطاني الذي قام على استغلال الأرض وعلى تحقيق ثلاثة أمور هي:

*تكريس نفوذ الدولة الأم المستعمرة.

*الاحتلال العسكري الواسع في البلاد التي تم احتلالها.

*الهجرة الاستيطانية الأوروبية إلى البلاد التي تم احتلالها.

وقد عرف العالم العربي بما فيه الجزائر كل هذه الأشكال الاستعمارية إذ أنه من الناحية التاريخية كرس الاستعمار مفهوما تمثل في عدم الاعتراف بالدولة القائمة قبل احتلالها. واعتبر نفسه قوة قاهرة حلّت محل "قوة" ضعيفة، أي أن الاستعمار يكون بهذا الأسلوب لم يعترف بالقانون الدولي ولا بالمنطق، إنما عمل على تكريس منطق مخالف قام على مصادرة حقوق الشعوب وبخاصة الإفريقية منها. ومثلت منطقة الصحراء منطلقا للتوسع في عمق إفريقيا. والسؤال الذي يمكن طرحه هو من كان يوجه هذا الاستعمار؟

قد يكون الجواب هو أن من وجه الاستعمار هي البلاطات الأوروبية. لكنه بشيء من التعمق يتبين أن هذه البلاطات لم تكن حرة، بل كانت هي الأخرى موجهة من قبل البرجوازية الليبرالية التي كانت تتحكم في السياسة والمال والمهن الحرة. لأن البلاطات كانت تنتمي إلى أسر دينية وكاثوليكية بالأساس، وكان المنظرون في أوروبا من الليبراليين، فمثلا كان شارل العاشر هو الذي وقع على الحملة الفرنسية على الجزائر لكن الليبراليين هم الذين مولوا الحملة، وهم الذين

استثمروها. وعلى هذا الأساس لم يكن الاستعمار كله حكوميا وإنما كان من منظرين وفي مقدمتهم التجار والبنوك.

ومن هذا نستنتج أن الاستعمار فكرة أيديولوجية عنصرية قبل كل شيء وقد عبر عن جزء من هذه العنصرية أنجلز في حديثه عن "فضائل" الاستعمار "ورذائل" المجتمعات الجزائرية والصحراوية، فقال: وإذا كنا نأسف على أن بدو الصحراء قد فقدوا حريتهم، فإنه يجب أن لا ننسى أن هؤلاء البدو كانوا أمة من اللصوص. ذلك أن وسائل عيشتهم كانت في شن غارات إما على بعضهم بعض وإما على القرى الآهلة المجاورة.

وخلال هذه الغارات يأخذون معهم ما وجدوا، ويقتلون كل الذين قاوموهم، ثم يبيعون الباقين من المساجين في سوق الرقيق.

فهذه الأمم من الهمج الأحرار تبدو من بعيد فخورة، شريفة، ماجدة، ولكنك لن تكتشف حقيقتها إلا عندما تقترب منها. عندئذ ستجدها، كأكثر الأمم حضارة، محكومة بالرغبة في الربح، مستعملة لذلك أقسى وأغلظ الوسائل. لذلك فإن البرجوازي (الفرنسي) الحديث مزود بالحضارة والصناعة والنظام وبعض الثقافة، سيكون أفضل لهذا المجتمع الهمجي من السيد (الجزائري) الإقطاعي او اللص قاطع الطريق[1].

والمميز تاريخيا أن اتجاهات ثلاثة أساسية ميزت السياسة الاستعمارية الاستيطانية الأوروبية في إفريقيا. وهي سياسة الإخضاع (La domination) وسياسة الإدماج (Assimilation) وسياسة الاستقلال الذاتي (Autonomie) ولكن المؤكد أن فرنسا طبقت لونا سياسيا واحدا في الصحراء الجزائرية وهي سياسة الإخضاع.

---

1 – أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ش و ن ت، الجزائر، 1978، ص: 79 – 82.

بناء على هذا تكون السياسة الاستعمارية الأوروبية قامت على إحلال قوة أجنبية في الجزائر بتكريس مشروع منظم سيطرت به على بلد ما وعمرته بهجرة مستوطنه[1]. أي باتباع سياسة الإخضاع القائمة على المصادرة المتعددة للشعوب الضعيفة سياسيا.

فالإستعمار الاستيطاني هو استعمار اجتماعي واقتصادي وثقافي قام على أساس يخالف النظرية المعروفة في علم السياسة والقائلة بأن الدولة تتكون من إقليم وشعب ومقومات ونظام حكم ومجال سيادة. بينما تكون أبعاد هذا الاستعمار هي إحداث نظام حكم ومجال سيادة من طرف قوة ما على هذا الإقليم وعلى حساب هذا الشعب لهدف نشر المدينة في أوساط هذه الشعوب "المتخلفة"[2].

ومن ثم يمكن الحكم على هذا الاستعمار بأنه ظاهرة فريدة من نوعها تتجاوز مسألة أنه قرار سياسي أو هجمة عسكرية، أو احتلال أرض، تتجاوز ذلك لتشكل تحولا كبيرا يمس مختلف جوانب الحياة الخاصة بالشعوب التي وقع عليها هذا الاستعمار.

2- بداية الاهتمام الأوروبي بالصحراء الجزائرية:

كان الاهتمام الأوروبي بالصحراء الجزائرية مركزيا وسابقا عن الاحتلال الفرنسي للجزائر العاصمة عام 1830، إذ أن الرحالة الأوروبيين قد دونوا معلومات قيمة عن الجنوب الجزائري[3]. وقد استفاد الضباط الفرنسيون مما تركه هؤلاء الرحالة في معرفة

---

1 - Luchaire (fran is), droit d'Outre – Mer, Th is, paris 1959 p 13

2 – لمزيد من المعلومات يراجع ما كتبناه في: من الملتقيات التاريخية الجزائرية، دار البعث، قسنطينة، 2001، صفحة 174 وما بعدها.

3 – اهتم الإنجليز بالصحراء، فأسسوا الجمعية الإفريقية (African associatio) عام 1788 بعد أن جمعوا معلومات عن الصحراء من خلال ما تركه اليونانيون والرومان والعرب. بعدها بدأت الرحلات الاستكشافية. ولم تأت سنة 1835 حتى تمكنت أوروبا من التعرف على المنطقة الممتدة من الجزائر العاصمة إلى الأغواط إلى الأوراس. وهذا بفضل المغامرين مثل دافيد (Davidson) وديفيريي (Duveyrier)

أحوال الصحراء، وفي توجيه حملاتهم التوسعية بهذه المنطقة، من ذلك نذكر الضابط لابي (Lapie) الذي تمكن من وضع خريطة عامة للجزائر أبرز فيها تضاريس المنطقة الجنوبية، وكانت هذه الخريطة أحسن أداة وظفها الفرنسيون فيما بعد في التوسع العسكري والمدني والتحكم الإداري والاجتماعي في الصحراء[1].

إضافة إلى هذا فإنه سبق لقادة الاحتلال أن استخبروا علماء كانوا يعرفون الصحراء جيدا، مثلما حدث مع العلامة الموريتاني أحمد المصطفى ولد طوير الجنة[2]، الذي مرّ من الجزائر عام 1832 أثناء عودته من الحج قاصدا بلده.

ومن جهة أخرى فقد وظف الأوروبيون الجانب العلمي في دراسة الصحراء، إذ اهتم أفازاك (Avezac) بدراسة المنطقة وأنجز عام 1836 دراسة جغرافية عن الصحراء، ضمنها خريطة هامة وضح عليها المعالم الرئيسية ومنها طرق المواصلات القديمة. مع تقديم تصور حول كيفية استغلالها من طرف فرنسا. وفي سنة 1837 أسست لجنة علمية فرنسية انكبت على دراسة إمكانات الجزائر وكيفية استثمارها. وتشكلت هذه اللجنة من عسكريين ومدنيين، ومنهم كاريط (Carette) الذي قدم مؤلفا هاما بعنوان:

Recherche sur la géographie et le commerce de l'Afrique méridionale

---

=هذا الأخير وصل إلى غدامس عام 1860، تحت رعاية نابليون الثالث. وقد ترك كتابا قيما بعنوان: Les Touareg du Nord

للمزيد من المعلومات يراجع: العربي، إسماعيل، الصحراء الكبرى وشواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1983. خاصة الفصل الرابع

1 – Augustin (B), et, Lacroix, histoire de la penetration saharienne, Alger 1900, p 3

2 – توفي هذا العالم سنة 1849 وترك آثارا قيمة أهمها: رحلة المنى والمنة. وهو مخطوط بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي، 168 ص.

وألف الضابط دوما (Daumas) بتشجيع من المارشال بيجو سنة 1845 كتابا بعنوان: "الصحراء الجزائرية" (Sahara algérien) وهو دراسة إحصائية وجغرافية وتاريخية عن الجنوب القسنطيني[1].

من العناصر الفرنسية التي كان لها السبق في التوسع بالصحراء وبوسائل متعددة الجنرال ديفو (Desvaux) الذي أبهر السكان بما أقام لهم من مشاريع، ومن بينها حفر الآبار وشق الطرقات وفرض الأمن. وكان ديفو على قناعة كبيرة بضرورة احتلال الصحراء بهدف حماية الوجود الفرنسي في قسنطينة والحصول على موارد رزق من الصحراء التي كانت مصدر ثراء[2]. وترجمت السلطة الفرنسية اهتماماتها عمليا بأن سمحت لقافلتين تجاريتين فرنسيتين بالانطلاق من بسكرة إلى جنوبها يوم 13 جويلية عام 1844، أي بعد احتلال هذه المدينة في مارس 1844، انطلقت تلك القافلتان لهدف معرفة أسواق المدن الداخلية. فاتجهت واحدة إلى توقرت. والثانية إلى عين صالح. تعرفتا على طومبوكتو الذي كان أهم مركز تجاري بالصحراء. وفتحتا الباب لتوافل أخرى. منها قافلة التاجر غارسان (Garcin) الذي زار بسكرة عام 1848[3]. وفي نفس العام قام أحد الفرنسيين برحلة من تونس، مرورا بوادي سوف، ثم توقرت وصولا إلى بسكرة، حيث دون ملاحظاته في كتاب قيم صدر بعنوان:

Commerce de l'Afrique avec la Mecque et Le Soudan, (?) paris 1849

1 – لمزيد من المعلومات يراجع ما كتبناه بعنوان: من تاريخ الجزائر الحديث جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة 2000

2 - Augustin (B) op cit p 12

3 – Augustin المرجع نفسه ص 13.

وقد وظفت السلطة الفرنسية هذه المعلومات أثناء توسعاتها بالصحراء، مثلا في عين ماضي 22/4/1844. وفي الأغواط يوم 1844/4/25[1]. وفي حملاتها العسكرية الكثيرة إلى مناطق من الأوراس، وإلى توقرت وواد سوف[2].

ووجدت فرنسا مساعدات من بعض الشيوخ أثناء توسعها مثلما وجدته في بوعزيز بن قانة الذي عينته فرنسا شيخ العرب على الزيبان ابتداء من جانفي 1839.

وبذلك دخلت الصحراء مرحلة جديدة من العلاقات. ظل يتقاسم النفوذ فيها كل من الأمير عبد القادر عن طريق خلفائه. والحاج أحمد باي والفرنسيين.

وتمكن الفرنسيون بفضل مساعدة سي حمزة من التوسع بالصحراء والدخول إلى ورقلة بصفة قوية عام 1853. ففاز سي حمزة بثقة الفرنسيين وعين خليفة على مناطق واسعة من الصحراء امتدت من البيض إلى ورقلة[3].

وكان لديفو دور كبير في هذا التوسع خاصة حين اتصل بشيوخ المنطقة، إذ أنه بعث برسائل إلى شيوخ لهم مكانة علمية واجتماعية منهم محمد السعيد بن علي الشريف الذي مدح قادة فرنسيين. ولم يفوت ديفو هذا الموقف واستغله إعلاميا. وطلب منه أن ينظم أشعار يمدح فيها شخصيات فرنسية وجزائرية، قصد التغني بها في الصحراء[4].

وبهذه السياسة تمكنت السلطة الفرنسية من التوسع في أغلب أنحاء الصحراء[5].

1– St – Armaud, les premières années de l'Algérie française, Leffont, R tours 1978

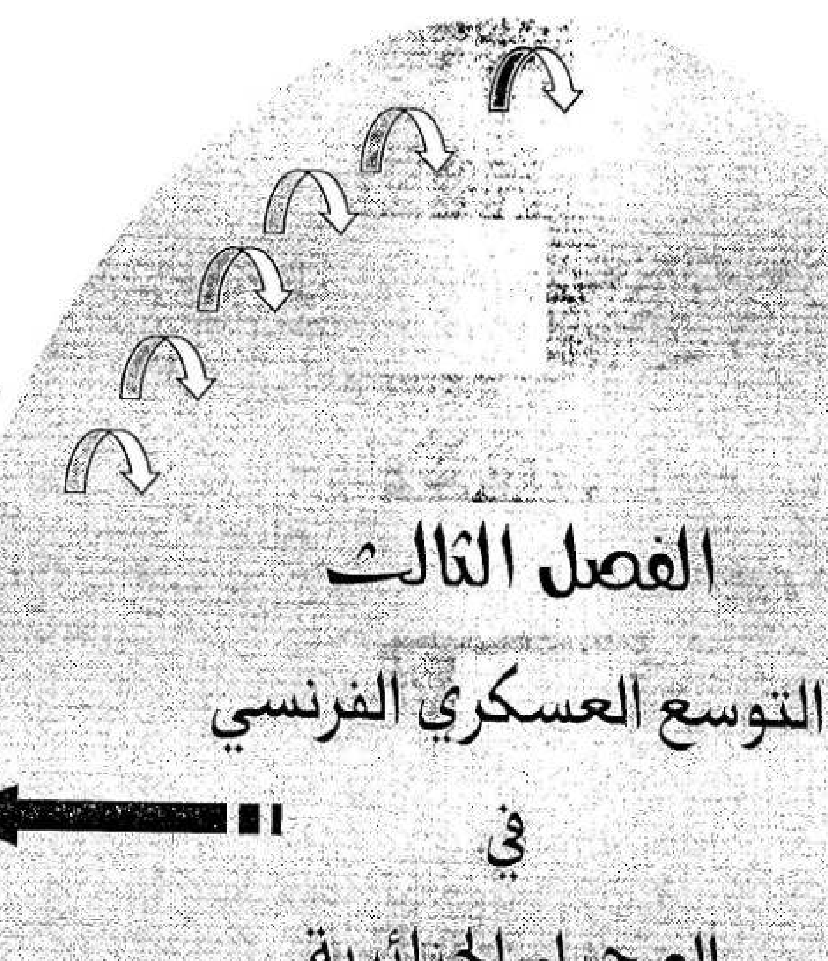
2 – قام الجنرال يوسف بحملة في 1852/9/10 إلى بوغار ثم المسيلة التي وصلت الأغواط ينظر:
A M G H217, H226

توجد في ملف H226 معلومات قيمة عن عين ماضي مدونة في 37 صفحة.

3 – للمزيد من المعلومات يراجع: يحي بوعزيز، "وثيقتان جديدتان عن كفاح الشريف محمد بن عبد الله"، الثقافة، العدد 33، وزارة الإعلام والثقافة، الجزائر 197 ص – ص 11 – 28

4 – لمزيد من المعلومات يراجع نص هذه الرسالة في كتابنا: من الملتقيات التاريخية، قسم الملاحق.

5 – ينظر خريطة رقم 11.



الفصل الثالث

التوسع العسكري الفرنسي

في

الصحراء الجزائرية

(1914 - 1844)

تمهيد:

يشكل موضوع التوسع الفرنسي في الصحراء الجزائرية حلقة هامة من حلقات تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر, ونظرا لصعوبة وتشعب هذا الموضوع فضّلنا أن نقسِّمه إلى عدة عناصر تتعلق بالجانب العسكري, ونعني بـه المعـارك العـسكرية الحاسمة التي خاضها السكان ضد التوسع الفرنسي في الصحراء. مع عرض لنماذج من هذا التوسع, وتسهيلا لدراسة هذه النقطة رأينا عرض الموضوع علـى النحـو الآتي:

1- القسم الأوسط من الصحراء الجزائرية إلى غاية تخوم أقصى الجنوب.

2- القسم الشرقي من الصحراء الجزائرية إلى غاية التخوم التونسية والليبية.

3- القسم الغربي من الصحراء الجزائرية إلى غاية التخوم المغربية.

والتزاما بالتسلسل التاريخي للأحداث نبدأ الحديث بمحور القسم الأوسط الذي يعتبر البداية الرئيسية للتوسع في الصحراء الجزائرية. والذي كانت فيه معركة الزعاطشة فاتحة المجال للعديد من المعارك الفاصلة.

1- القسم الأوسط وأهم المعارك:

يمتد هذا القسم من واحة الزعاطشة شمالا إلى كل من تقرت, والوادي, وتماسين, والأغواط وغرداية وورقلة إلى أقصى الجنوب الجزائري.

وقد وقعت معارك كثيرة في الجنوب الجزائري ومن أهمها نذكر:

1-1 معركة واحة الزعاطشة:

بداية من سنة 1844 تكون السلطة الفرنسية استولت رسميا على أهم مناطق الزيبان بعد أن تقلص منها نفوذ الامير عبد القادر وتوقف بعدها الحاج أحمد باي عن مواصلة الكفاح، إذ وصل الفرنسيون إلى مدينة بسكرة بعد تمكنهم من احتلال باتنة عام 1844 وتعيين الضابط "سان جارمان" على رأس القيادة في المنطقة. ومنذ ذلك الحين بدأت فرنسا تتطلع إلى وضع يدها على الجنوب الجزائري، ونلمس ذلك في الخطاب الذي أرسله "المارشال سولت" تحت إشراف وزير الحربية إلى الملك الفرنسي ومن أهم ما جاء فيه: يجب أن تؤلف الصحراء الجزائرية أو بعبارة أخرى المناطق الواقعة بعد التلال صنفا ثالثا من الجهات الادارية، ففي هذه الجهات لا أثر للمعمرين وأن الجيوش لم تتواجد بها الا عرضا لقمع الفوضى أو لإعداد ظروف ملائمة لإقامة العلاقات التجارية أو توسيعها، وهي مناطق تفتح لنا المجال لطرق هامة في الحركة التجارية المؤمنّة، ومن علامات تغلبنا أن جلالتكم تقضي بتعيين قواد من الاهالي في هذه المناطق[1].

ومن خلال هذا النص تتضح لنا الغاية الاستراتيجية والتجارية والامنية من توسيع الاحتلال نحو الجنوب. وإذا كان لابد من تجسيد هذه الطموحات فإن واحة الزعاطشة كانت إحدى أهم ضحايا هذا التوسع الاستعماري، فأين تقع هذه الواحة؟ وما هي أسباب اندلاع هذه الثورة بها؟ وما هي أهم تطوراتها ونتائجها؟

الموقع الجغرافي: تقع بمنطقة الزاب الظهراوي على بعد 35كم جنوب غرب بسكرة والتي سبق وأن سقطت في يد الاحتلال بقيادة "دومال" سنة 1844.

1- أندري، نوشي وآخرون، الجزائر بين الماضي والحاضر، ترجمة إسطنبولي رابح وآخرون، ديوان المطبوعات الجزائرية، الجزائر 1984، ص385.

أهداف الجزائريين من القيام بهذه المعركة:

- تحرير بلاد الجزائر من الاستعمار الفرنسي (دافع وطني وديني).
- طرد الحامية الفرنسية المتمركزة في بسكرة.
- إلغاء الضريبة المفروضة على النخيل التي ارتفعت من 15 سنتيما إلى 45 سنتيما أي بزيادة مئوية قدرها 300% على الرغم من تدهور محصول التمور بين الحين والاخر[1].

وقد اختار الجزائريون وقت هذه المعركة في ظرف كانت فيه فرنسا مشغولة بحروب خلال عدة ثورات مثل: ثورة أولاد بانوس في الظهرة، وأولاد دراج في الحضنة، وبني سليم في التيطري، وبني سليمان وبني يعلي وقشتولة في جرجرة، وثورة زواوة بقيادة سي الجودي وثورة أحمد بن يمينة في الواد الكبير بسكيكدة، وثورة زواغة وفرجيوة وغيرها[2].

ولا شك أن هذا الوضع قد ساهم في تقليص عدد الجنود الفرنسيين المتمركزين في كل من بسكرة وباتنة والتي لم يكن يزيد عددها عن 800 جندي. وفي ظل هذه الاوضاع دعا الشيخ بوزيان أنصاره إلى جمع الاسلحة وإعلان الاستعداد للجهاد، وهذه الحركة دفعت نائب المكتب العربي ببسكرة "سيروك" إلى محاولة إلقاء القبض على بوزيان في إحدى جولاته بواحة الزعاطشة. الا أن هذه المحاولة باءت بالفشل وترتب عنها قتل بعض حراس "سيروك" وترك وراءه حصانين وبرنوسين وبندقية، وعلى إثر هذا الموقف المتأزم قام "ديبوسكي" بالتوجه إلى الواحة على رأس 50 فارسا وطلب من السكان تسليم الشيخ بوزيان، وهو ما زاد في تأزم الوضع، وفي

---

1 – جعنيط، عيسى، "مقاومة سكان الواحات للاحتلال الفرنسي في القرن 19، ثورة الزعاطشة، أسبابها وتطوراتها، الدراسات التاريخية، عدد 9، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1415هـ/1995م، ص148.

2 – جعنيط، عيسى، المرجع نفسه، ص148.

الوقت نفسه قام سكان واحات طولقة وفرفار وليشانة وبوشقرون بإعلان الجهاد دفاعا عن بوزيان وأنصاره، هذا الوضع حمل "ديبوسكي" على الانسحاب نحو بسكرة والتخطيط من هناك لمواجهة الثوار.

ولاحتواء هذا الوضع قامت السلطات الفرنسية من باتنة بتوجيه قوة عسكرية نحو الجنوب تقدر بحوالي 2000 جندي على رأسها القائد "كاربوسيا" لكنه سرعان ما انهزم أمام الثوار وخلف وراءه 31 قتيلا و117 جريحًا[1].

حدث ذلك في شهر جويلية 1849. ولكن هذا الفشل لم يثن من عزيمة الفرنسيين الذين لجأوا إلى تطويق الثورة وتقليص نفوذها فكلفوا شيخ العرب ابن قانة بفرض رقابة على سكان الزاب الظهراوي وقطع أي اتصال خارجي يقيمه الثوار. الا أن هذه المحاولة فشلت هي الاخرى، وتنتشر الثورة خارج الزيبان ففي 27 جوان 1849 كان قد هاجم أولاد سحنون زمالة سي مقران، وعمّت الثورة أيضا كل منطقة الزمالة في جبال الاوراس. وانضم إليها كثير من المساندين من أولاد جلال وأولاد سيدي قائد والمسيلة وبوسعادة وأولاد نايل وجبال الاوراس، ولتصوير خطورة الوضع في المنطقة أشير إلى ما كتبه "ديفو" في إحدى رسائله إلى الحاكم العام يوم 10 أوت 1849 "...لقد أدت الحالة الخطيرة التي تفجرت في منطقة الزاب إلى إسقاط هيبتنا وسلطتنا في أعين أهالي المنطقة..."[2]. وخلال شهر سبتمبر كانت هناك محاولة أخرى لتطويق الثوار، وانطلقت من مدينة بسكرة بقيادة "سان جارمان" نفسه، الا أن محاولته باءت بالفشل رغم استشهاد قائد الثوار الشيخ عبد الحفيظ الخنقي، ولكن قتل "سان جارمان" في هذه المحاولة رفعت من معنويات المجاهدين رغم فقدانهم لحوالي 200 شهيد. وفي ظل هذه الهزائم المتتالية استنجد الفرنسيون بالحامية الفرنسية المتواجدة في الشمال من قسنطينة، باتنة، بوسعادة،

1 – سعد الله، أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية، الجزء الاول، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1992، ص353.

2 – جعنيط، عيسى، المرجع السابق، ص143.

سكيكدة، وعنابة ولقد أشرف على هذا الدعم "هيربيون" حاكم مقاطعة قسنطينة والتي انطلق منها يوم 1849/09/28 باتجاه باتنة، ومن هناك انضم إليه جيش من القياد والشيوخ وكان على رأسهم ابن قانة شيخ العرب، وفي يوم 1849/10/04 وصل مدينة بسكرة وبعد يومين استأنف مسيره وبصحبته فيلق من اللفيف الاجنبي بقيادة العقيد "كربوسيا" وتمركز بكدية المائدة المقابلة للواحة يوم 07 أكتوبر على الساعة 8 صباحا بمجموع قواته إلى 1000 محاربا[1].

وعلى إثر ذلك قام العدو الفرنسي بمحاصرة الواحة والاقتراب منها شيئا فشيئا بعد أن حرق واقتلع ما وجده أمامه، وفي هذه الاثناء كانت الاشتباكات متواصلة مع الثوار المدافعين عن الواحة ورغم استخدام سلاح المدفعية في هدم السور الخارجي للواحة فإن هذه الهجومات كلفت الطرف الفرنسي حوالي 30 قتيلا و57 جريحا ولتوضيح صعوبة الموقف أشير إلى ما كتبه القائد الاعلى لقوات قسنطينة. "...والواقع أن هذا الاشتباك الاول يثبت لدينا أن العرب مصممون على منازعتنا كل شبر من الارض التي تفصل بيننا وبين الزعاطشة... ونحن نعرف أنها محاطة بخندق واسع وعميق مليئ بالمياه...مما يجعل الاستلاء عليها أمرا مستحيلا..."[2].

ولقد استخدم الثوار كل ما لديهم من قوة في الدفاع عن أنفسهم أمام وحشية الاستعمار الفرنسي الذي سرعان ما وصله دعمٌ رفع من عدد جيوشه إلى حوالي 1512 جنديا وضابطا ومعهم مختلف أنواع الاسلحة خاصة بطاريات المدافع، وازدادت مع هذه الامدادات خسائر الطرف الفرنسي وهو ما جعل قائد الحملة يصرّح بما يلي:

---

1 – إسماعيل، العربي، "الترتيبات التكتيكية لحصار قرية الزعاطشة، أكتوبر، نوفمبر 1849" الدراسات التاريخية، عدد 9، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1415هـ/1995، ص156.

2 – المرجع نفسه، ص159.

"...شعرنا بهذه الاحداث البائسة شعورا عميقا، وأدركنا أهمية التستر من نيران القرية المحاصرة في أسرع وقت ممكن، فإن هؤلاء الثوار قد أعطونا دليلا قاسيا على مهارتهم في القتال..."[1]، وهكذا استمر حصار الواحة إلى غاية الهجوم الكبير الذي شنه العدو الفرنسي يوم 28 نوفمبر 1849 هجوم انتهى باقتحام الواحة، ومن النتائج التي ترتبت عن ذلك يمكن ذكر الخسائر الاتية:

الطرف الفرنسي: قتل 10 ضباط و60 منهم جرحى، وقتل 156 جنديًا وجرح 740 آخرين.

الطرف الجزائري: تدمير الواحة عن آخرها وطمس معالمها.

– استشهاد الشيخ بوزيان وابنه الحاج موسى الدرقاوي (بوعمار) وحوالي 300 شهيد، وهذا فضلا عن الذين دفنوا تحت الانقاض وغمروا بالمياه، أكثر من 1000 شهيد.

– ازداد شك السلطات الفرنسية في ولاء عائلتي بوعكاز بقيادة ابن شنوف على أولاد صولة وعائلة ابن قانة بقيادة شيخ العرب محمد الصغير بن قانة ابن أخ بوعزيز بن قانة، وعملت على إضعافهما بتقسيم فرنسا لمناطق نفوذهما، فأما العائلة الاولى فأعطيت لها قيادات صغيرة في الحضنة ونواحي سطيف وبقي الزاب الشرقي تحت قيادة ابن شنوف، وأما العائلة الثانية فأضافوا بني بوسليمان بالاوراس إلى بني شنوف وقسموا الزاب الغربي إلى العرب الشراقة والعرب الغرابة قصد مراقبة ابن قانة والسكان أيضا، وأنشأوا في شمال بسكرة قيادة جديدة هي قيادة السحاري بقيادة بولخراص بن قانة[2].

– احتلال مدينة بوسعادة مع مطلع سنة 1850 بعد معركة حامية الوطيس — معركة بوسعادة– وذلك على إثر الامدادات التي قدمها القائد محمد بن شبيرة

---

3 – المرجع نفسه، ص160.

1– سعد الله، أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية، المرجع السابق، ص357.

لسكان واحة الزعاطشة ولقيامه أيضا بإرباك العدو الفرنسي بين الحين والاخر إثر انتفاضته التي تزامنت ووقرت حصار الواحة.

– تدمير واحة نارة بعد معركة حاسمة مع العدو الفرنسي، والتي لاقت نفس مصير واحة الزعاطشة، فقطعت أشجارها وغابات نخيلها، على يد القائد "كاروبير" الذي ادّعى أن سكانها رفضوا دفع الضرائب المفروضة عليهم، فتقدم إليهم وأحرق. واحتهم بثلاثة فيالق عسكرية، كان ذلك يوم 05 جانفي 1850 وقد خسر الفرنسيون حسب إحصاءاتهم 8 قتلى من بينهم الضابط بوكوتو وحوالي 30 جريحا[1].

1–2 معارك تقرت وورقلة والاغواط وعين صالح:

مع مطلع النصف الثاني من القرن 19م شهدت الصحراء الجزائرية العديد من الثورات والتي امتدت من أولاد سيدي الشيخ غربا إلى منطقة وادي سوف شرقا، وكان الوضع يساعد على ذلك[2]، وإنه ليصعب مراعاة التسلسل التاريخي لهذه المعارك لكونها متداخلة ومتزامنة مع بعضها في كثير من الاحيان، وقبل تحديد ذلك أود الاشارة إلى الوضع السياسي الذي كانت عليه المناطق الصحراوية الواقعة جنوب بسكرة. (الاغواط، تقرت، ورقلة).

ففي سنة 1850 توفي الحاج أحمد بن بابية سلطان ورقلة، وكانت السلطة في يد للا الزهرة وولد عبد الله بن خالد، فعرضت السيدة زهرة السلطة في ورقلة على الشريف إبراهيم فقبلها وسمي نفسه سلطان ورقلة، وكان ابن الحاج بابية يطمح إلى

---

1 – الحركة الوطنية الجزائرية، المرجع نفسه، ص358، وللمزيد من المعلومات حول واحة الزعاطشة يراجع:

– احميدة، عميراوي، بحوث تاريخية، دار البعث قسنطينة 2001، البخاري، حمانة، (بعض أسباب فشل ثورة الزعاطشة) الدراسات التاريخية، عدد 9، ص–ص165–171، محمد الطيب العلوي، مظاهر المقاومة الجزائرية (1830–1954).

2 – آندري نوشي، وآخرون، المرجع السابق، ص 386

أن يكون هو السلطان، أما في تقرت فإن بني جلاب كانوا منقسمين على أنفسهم إذ كان السلطان عبد الرحمن ينافسه سلمان الذي تعاون مع الشريف، كما كان زعيم الارباع ابن ناصر بن شهرة ناقما على تعاون الخليفة أحمد بن سالم بالاغواط مع الفرنسيين، وأمّا ميزاب فقد كانت السلطة فيها للعزابة، وكانت تفضل الحياد ولكنها في كثير من الاحيان كانت تمقت أخبار التوسع الفرنسي نحوها[1].

في ظل هذه الظروف أعلن شريف ورقلة عن ثورته وبدأ في مهاجمة المتعاونين مع العدو، وكانت غايته الاستيلاء على تقرت والاغواط، ففي صيف 1851 وصل نشاطه إلى تقرت واستولى على نفوسة وتماسين وكثر جيشه من واد ريغ والشعابنة وسعيد عتبة، ولكن سلطان تقرت –عبد الرحمن– تصدى للشريف وهو ما جعله يعود إلى ورقلة، وكان موقف ناصر بن شهرة أن انضم إليه وعزز موقفه، وراسل الشريف ابن الاحرش في الجلفة طالبا منه الوقوف إلى جانبه كما انظم إليه أولاد يعقوب بجبل عمور، ومع مطلع سنة 1852 هاجم الاغواط الا أن المدافعين عنها أوقفوه نواحي ميزاب، ولم يستطع ابن الاحرش –الذي رد هجومه الشريف أن يواصل عملياته فرجع دون نصر، كما هرب أحمد بن سالم من الاغواط إلى المدية محتميًا بالسلطة الفرنسية التي عينته قائدا. ولكن بانضمام زعيم أولاد سيدي الشيخ الاغا حمزة اكتسب الشريف قوة هائلة، في الوقت الذي قضى فيه سلمان الجلابي على ابن عمه عبد الرحمن وتولى سلطنة تقرت بدله الذي يعني انتصارا للشريف أيضا[2].

وفي أثناء غياب الشريف عن ورقلة حل بها أبو حفص بن بابية، وادعى أنه خليفة الفرنسيين عليها، الا أنه لم يستطع الثبات أمام الثورة فهرب إلى تيارت تاركا ورقلة للشريف، هذا الاخير الذي تمكن من بناء قصبة لإدارة حكمه وترتيب

---

1 – سعد الله، أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية، المرجع السابق، ص375.

2 – المرجع نفسه، ص375.

جيوشه، ومنها بعث رسائل إلى زعيم أولاد سيدي الشيخ حمزة آغا، وأثناء هجومه على تقرت واجهه عبد الرحمن الجلابي، ولكنه تمكن من دخول تماسين التي وجد بها محمد العيد التيجاني واقفا على الحياد من هذه الاحداث المؤلمة.

ساعدت هذه الظروف الشريف على افتكاك مدينة الاغواط وقطع الطريق أمام التوسع الفرنسي باتجاهها، وذلك من خلال تمكنه من رد هجمات ضباط المكاتب العربية المتتالية نحوها، وهما هجوم كل من "بان" و"دينو" وفي شهر أكتوبر 1852 اشتبك مع طلائع الجيش الفرنسي على مشارف المدينة بقيادة "بيليسيه" و"يوسف" المملوك وتمكن من السيطرة على المدينة بكاملها خلال شهر نوفمبر وبمساعدة ابن شهرة، وهو ما دفع بالفرنسيين إلى تعزيز قدراتهم العسكرية والدخول في معركة حاسمة –معركة الاغواط– ضد الثوار يوم 1852/12/04م، معركة اضطر خلالها الشريف إلى الانسحاب وخلف وراءه مصرع عدد كبير من الفرنسيين وعملائهم وضابطين فرنسيين أحدهما برتبة جنرال وهو "بوسكارين" و"موران" وعلى إثرها تمكنت القوات الفرنسية من احتلال الاغواط[1]، ولاشك أن الفضل في هذا الانتصار يعود إلى تلك الامدادات التي وصلت من الجزائر ووهران والمقدرة بـــ: 8 فيالق عسكرية مزوّدة بالمدفعية، وهو السلاح الذي يفتقده الثوار.

إن احتلال الاغواط قد سمح للمارشال "راندون" "RANDON" أن يجعل منها نقطة ارتكاز استراتيجية باعتبارها بوابة الصحراء كلها، وأملا في استمالة سكان الصحراء عمد الفرنسيون إلى أسلوب الاتفاقيات مع شيوخ المنطقة، ومن بين ذلك الاتفاق الذي وقع بينهم وبين أهل ميزاب في 1853/04/29م والذي رضوا بموجبه بدفع ضريبة للفرنسيين قدرها 4500 فرنكا والاعتراف بحمايتهم، مقابل عدم

---

1 – سعد الله، أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية، المرجع نفسه، ص376.

التدخل في شؤونهم الداخلية واستمرارهم في تجارتهم بالمغرب وتونس وأن يتعهد المزابيون بعدم فتح أبوابهم لأعداء فرنسا[1].

وللأسف الشديد أن هذه الاتفاقية ساهمت في توغل القوات الفرنسية حتى مشارف مدينة تقرت وتحت غطاءات عدة، ولم تكد تمضي سنة واحدة عليها حتى هاجموا تقرت ونواحيها بحجة مطاردة الثائر الشريف الذي ظهر عند صديقه سلمان الجلابي السابق الذكر، وخلال خريف 1854 جهزت السلطات الفرنسية حملة عسكرية كبيرة بقيادة كل من "مارميه" و"ديفو" و"بان" واشتبكت مع ثوار المنطقة في معركة جرت في المقرين –معركة المقرين– يوم 28 نوفمبر 1854م، وكانت قوات الشريف تقدر بحوالي 800 فارسا و2000 من الفنطازية، وتدّعي فرنسا أنه خسر في المعركة 500 قتيلا، وكل الرايات و1000 بندقية وعدد هائل من السيوف[2].

وعلى إثر ذلك انسحب الشريف ورفيقه سلمان من تقرت التي تمكنت القوات الفرنسية من دخولها يوم 1854/12/05م، وعينوا عليها فرحات بن سعيد –عائلة بوعكاز– حاكما على تقرت وسوف ونواحيها بلقب علي باي. وخلال هذه الفترة التجأ الشريف إلى تونس للتداوي جراء الجروح التي أصيب بها، ولم يثنه ذلك من عودته إلى المنطقة والقيام بتحريض سكانها الذين لم يصلهم العدو الفرنسي، وخاصة الشعابنة والمخادمة وسعيد عتبة والارباع...إلخ، وبواسطتهم ظل يكرر هجومه بين الحين والاخر على الاغواط وتقرت إلى أن استقر نهائيا في خريف 1861 بورقلة، وأخذ في تحصينها من جديد الا أن العدو لم يمهله وجهز له جيش قويًا من المرتزقة ومن بين الذين قادوا الجيش ضده الباشاغا حمزة بن بوبكر من

1- يحي، جلال، تاريخ المغرب الكبير العصور الحديثة وهجوم الاستعمار، ج3، دار النهضة العربية، بيروت، 1981، ص190، والملاحظ أن هذه الاتفاقية بقي العمل بها إلى غاية سنة 1882.

2- سعد الله، أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية، المرجع السابق، ص377.

أولاد سيدي الشيخ- الذي جاء من البيض، وفي يوم 8 أكتوبر 1861 خرج الشريف إلى نقوسة حيث اشتبك بالعدو الفرنسي -معركة نقوسة-[1]

وبعد قتال عنيف وخسائر فادحة للطرفين اعتقل الشريف وأخذ أسيرا إلى قارة الحاج -رمال بوبروال- ثم نقل إلى وهران ومنها إلى كورسيكا، وفي سنة 1863 أعيد إلى عنابة شبه ميت، حيث توفي في نفس العام.

وإذا كان الباشاغا حمزة بن بوبكر قد لعب دورا كبيرا في وضع حد للثائر الشريف محمد بن عبد الله في معركة نقوسة، قامت السلطات الفرنسية بتعينه خليفة عنهم على إقليم الصحراء الممتد بين البيض وورقلة وذلك بمساعدة الكابتن كولومب -ضابط في مكاتب الشؤون العربية- واستغلته في إدارة هذا الاقليم إلى أن استتب لها الامن فقامت بعزله من منصبه[2].

لقد تضاربت الروايات التاريخية حول مصير حمزة بن بوبكر، وحسب السلطات الفرنسية أنه اغتيل على يد أحد نسائه لخيانته، وبوفاته تولى قيادة القبيلة من بعد ابنه سي سليمان ولكن هذا الاخير كان عكس أبيه إذ سرعان ما أعلن الثورة ضد الفرنسيين في سنة 1864م[3].

وشملت هذه الثورة أنحاء واسعة من الصحراء وكبدت العدو خسائر فادحة وخاصة في الاقليم الممتد من فقيق إلى تافيلالت، وأملا في المزيد من التوسع أنشأت السلطة الفرنسية عدة مراكز عسكرية بين ورقلة والمنيعة وظلت اتفاقيتها مع بني ميزاب تعيق تحركاتها العسكرية المشبوهة، وعندما أدركت بعدم جدواها معهم قامت بالزحف على بني ميزاب سنة 1882 وهو ما فتح الباب لمواجهات دامية بين الميزابيين والفرنسيين، ولكن الغلبة كانت للعدو الفرنسي، الذي تمكن في سنة 1891

---

2 – سعد الله، أبو القاسم، المرجع نفسه، ص378،

1 – يحي، جلال، تاريخ المغرب الكبير، المرجع السابق، ص191.

2 – يحي، جلال، المرجع نفسه، ص197.

من اقتحام المنيعة وتأسيس مركز عسكري دائم بها، ومن المنيعة قررت احتلال عين صالح وواحات توات، ولتحقيق ذلك شرعت في تشييد العديد من المراكز العسكرية والحصون المنيعة في قلب الصحراء، والتي من أهمها: "حصن ماريبال" في حاسي شباية على بعد 135 كم جنوب المنيعة – على طريق عين صالح عبر تادميت – وحصن "ماكماهون" في حاسي عمار على بعد 165 كلم جنوب غرب المنيعة في واد مقيدات على طريق قورارة(1).

وإذا كانت القوات الفرنسية تمكنت في سنة 1895 من احتلال الابيض سيدي الشيخ وجنان بورزق في الجنوب الوهراني فإنها قامت في سنة 1897 بنقل مركز دائرة أقصى الجنوب من غرداية إلى المنيعة ومن هناك بدأت ترسل في بعثاتها نحو الجنوب، فعلى سبيل المثال أرسلت يوم 1899/11/28 بعثة من ورقلة نحو عين صالح والتي وصلت يوم 1899/12/09 إلى حاسي إينفل، وفي يوم 15 ديسمبر وصلت حاسي السوقي، وغادرته يوم 18 لتلتحق بحاسي المقر ومنه إلى رق أجماد وواد مسين، وفي يوم 12/26 وصلت فوقارات الزوا، ومن الغد حطت رحالها بواحة إيقوستين(2).

وحين علم سكان الناحية بنوايا هذه البعثة، شنوا عليها هجوما مفاجئا يوم 1899/12/28 في الصباح الباكر بقوة تقدر بحوالي 1200 مجاهد بقيادة الحاج المهدي باجودا رئيس قبيلة أولاد باجودا، واستمر القتال حتى العاشرة صباحا حيث استشهد هو وجمع هائل من أنصاره وسيطر النقيب "بان" على الموقف خاصة بعد أن تدعم موقفه بفرقة من الصبايحية بقيادة النقيب "جرمان"، وبهذا الانتصار تكون البعثة قد واصلت سيرها ودخلت القصر الكبير لتستقر بقصبته خلودا للراحة، ومنه واصلت سيرها نحو عين صالح، وبالقرب من قصر دقاشمة تجددت المعركة يوم

---

3 – إبراهيم، مياسي، توسيع الاستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي الجزائري (1881-1912) منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، 1996، ص107.

1 – المرجع نفسه، ص109.

1900/01/05 –معركة قصر دقاشمة- فاحتمى الفرنسيون بحصونه وحدائقه، وبدأ الاشتباك حوالي الساعة 9 صباحا[1]، ونتيجة لعدم توازن القوى فقد الثوار العديد من الجرحى والقتلى.

وأمام هذا الوضع الصعب قرر الوالي العام "لافريار" تدعيم البعثة بقوات إضافية فأمد القائد بومقارتن –القائد الاعلى لدائرة القليعة- بالتحرك نحو عين صالح على رأس الفرقة العسكرية الصحراوية والتي ضمت 150 جنديا، 150 قوميا، وفي 1900/01/18 وصلت إلى القصر الكبير، وبعد مواجهات واهية مع الثوار تمكنت من الدخول إلى بني صالح[2]، وإذا كانت فرنسا قد حققت إنجازا عظيما وبهذا الفوز، فإنها واصلت زحفها نحو الجنوب، وفي هذا الشأن أصدر الوالي العام تعليماته إلى الرائد بومقارتن باحتلال عين غار، وكلف هذا الرائد الملازم "كلوستر" بالسير إليها على رأس 100 فارسا للتعرف على الواحة.

غادر هذا الاخير عين صالح يوم 1900/01/21 ودخل عين غار دون مقاومة وهو ما دفع بـــ"بومقارتن" إلى الالتحاق به على رأس كوكبة من الصبايحية الصحراوية و100 جندي و120 قومي لاحتلال كامل هذه الواحات، وترك وراءه الملازم "جون" في عين صالح وبرفقته 30 جنديا و30 قومي، وفي يوم 1900/01/24 تمكن من الوصول إلى عين غار وطلب من السكان الخضوع له، الا أنه واجه مقاومة شرسة من لدنهم.

هذه المقاومة دفعت بوزير الحربية أن يصدر أوامره بالعودة إلى عين صالح فوصلها يوم 27 جانفي، ومن هناك ظل يخطط لعمليات قادمة، وهكذا وفي ظرف زمني قصير تم احتلال إيغلي بواسطة "برترون" "BERT RAND" وفي يوم 25 مارس 1900 وصل دوفيربيه وانحدر مع واد زوزفانة ودخل إيغلي دون حوادث

2 – يحي، جلال، تاريخ المغرب الكبير، المرجع السابق، ص208.

1 – إبراهيم مياسي، المرجع السابق، ص109.

وتمكن من احتلالها نهائيا يوم 05 أفريل 1900 وبقوة عسكرية قدرت بـ 75 ضابط و1775 رجلا، في الوقت الذي كان فيه الثوار لا يبلغون هذا العدد، ومن هناك اتجه طابور العقيد "أو" "EU" إلى عين غار بعد أن اجتمع في عين صالح وضم قوة هائلة تقدر بأكثر من 1000 رجل ومدفعين وحاصروا قصورها واستعدت للمقاومة تحت قيادة الباشا أوريس الذي أرسله العرش المغربي لتنظيم المقاومة بالمنطقة، وبعد أن نظمت القوات الفرنسية نفسها كانت قد أعلنت عن هجومها يوم 19 مارس بقصف مدفعي كبير وهو ما دفع بالثوار إلى التراجع والاحتماء بقصبة أولاد حاديقة والمسجد وبقصبة حديقة أولاد أحمد بلول، هذا الاحتماء دفع بالعدو إلى تحطيم جدران القصبة وقتل العشرات من السكان والمواشي، وهو ما أرغم السكان على الاستسلام واقتحمت عين غار من جديد وللمرة الاخيرة وأسر الباشا[1]، ومن هناك توجهت القوات الفرنسية إلى احتلال تيت يوم 23 مارس دون مقاومة تذكر ويوم 25 مارس احتلت أقابلي –تضم 05 قرى صغيرة– وفي يوم 28 منه احتلت واحة من أجمل الواحات، وهي تقع إلى جنوب شرق مدينة رقان[2].

القسم الشرقي وأهم المعارك فيه:

منذ الاحتلال المباشر لمدينة قسنطينة ومدينة باتنة تطلعت القوات الفرنسية إلى مد نفوذها نحو الجنوب، وكانت البداية بتدفق التجار –الجواسيس– الفرنسيين على سوق تقرت، والقيام بعدة بعثات أهمها التي قام بها "هنري" و"ديفيري" في سنة 1859 من أنصار السانسيمونية – بعثة استطلاعية أدرك من خلالها القليعة ووصل حتى منطقة الطوارق حيث دخل في حمايتهم كثيرون وطلب منهم السماح للفرنسيين بزيارة سوق غدامس[3]. وقبل أن توطد نفوذها في المنطقة جابهتها العديد من المقاومات كان أبرزها – معركة تبسة في شهر أكتوبر 1853. معركة قادها

---

1 – إبراهيم مياسي، المرجع نفسه، ص112.
2 – المعهد التربوي الوطني الجزائري، الاطلس العالمي، ص19.
3 – المعهد التربوي الوطني الجزائري، الاطلس العالمي.

أحد الاشراف يدعى عمار عمر، بن قديدة وجمع أنصاره من أهل الناحية، البكارية، الحراكتة، أولاد سيدي عبيد...إلخ. وهاجم بهم مراكز العدو الفرنسي الذي تصدى لهم بقيادة الضابط "جابي" وبعض المرتزقة، وترتب عنها استشهاد قائدها وعدد هائل من الجزائريين، وغنم العدو الفرنسي أسلحتهم وخيمهم وأعلامهم وراياتهم، ومن جهة أخرى ساهمت في تحفيز السكان وحثهم على الجهاد[1].

وما يمكن قوله حول التوغل في هذا القسم أنه يختلف عن القسم الغربي لكونه غني بالسبخات والتي أعاقت في كثير من الاحيان تقدم القوات الفرنسية ولذلك فهذا القسم شهد معارك حاسمة بين الجزائرين والفرنسيين. ولتحقيق مزيدا من المكاسب قامت فرنسا بفرض الحماية على تونس في سنة 1881م، وارتبط هذا الاحتلال بمشروع الصحراء الافريقية الكبرى، وأملا في إنجاز ذلك أرسلت فرنسا العديد من البعثات منها بعثة الكولونيل "فلاترز" إلى التوارق والتي قتل فيها.

المقاومة التارقية للتوسع الفرنسي وأهم معاركها:

ذكرت سابقا أن الوصول إلى هذه المنطقة كان بفضل تلك البعثات التبشيرية، فبعد بعثة "هنري ديفيري" ومقتل الرجال التسعة في بعثة "فلاترز" الثانية عام 1881 من طرف التوارق كثف الفرنسيون جهودهم لاحتلال المنطقة وضاعفوا من إرسال البعثات والحملات والتي من أهمها:

– حملة "إيميل جانتيل" في سنوات 1895، 1897، 1899، 1900 للتعرف على الصحراء الافريقية الكبرى، ولقد انطلقت فيها حتى من منطقة حوض الكونغو.

– حملة "فورو لامي" بين عامي 1898-1900، والتي ضمت حوالي 296 عسكري و1000 جمل ومجموعة من الادلاء وكمية كبيرة من المؤونة والاغذية،

---

4 – سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية، المرجع السابق، ص382.

غادرت منطقة صدراتة –قرب ورقلة– التي وصلتها يوم 1999/11/12 وفقدت في طريقها معظم الجمال. وشرعت في أواخر ديسمبر في العودة وخاض الطوارق ضدها معركة حاسمة –معركة آزجير– في شهر جانفي 1900م[1] وتركت وراءها العديد من القتلى والاسرى وما بقي منها واصل سيره نحو تشاد بدلا من العودة إلى مقرها الاول.

– إبرام معاهدة غدامس في 1862/11/26 مع شيخ التوارق إيخنوخن (توفير الحماية للفرنسيين) لم تكن كافية لتوفير هذا الامن المزيف الذي كثيرا ما شارك التوارق في تحقيقه.

ولقد حاولت فرنسا جاهدة كسب التوارق إلى جانبها، ولعل أبرز ما قام به الراهب ميشال دي فوكو[2] خير دليل على ذلك. كما حاولت ربط التوارق بنظام سياسي فرنسي في إطار ما عرف بالسياسة الفونكوترتية[3]. وهو مجال لا يسعنا الحديث عنه.

إن النوايا الحقيقية للفرنسيين اكتشفت بمجيء المقدم "فلاترس" سنة 1880 إلى الهقار وهو ما دفع بتوارق أزقار والهقار وكال قرسي وكال أوات وتوارق تامبكوتو في مدينة غات وقرروا مقاومة أية محاولة أوربية للتغلغل في الصحراء وهنا تبرز لنا شخصية أهتيفال محمد بسيكا بن الحاج البكري (1877-1907) أمينكال توارق الهقار، الذي بدأ ينظم ويوحد صفوفهم، وهو ما دفع بالفرنسيين إلى محاولة التفاوض معه، الا أنها لم تفلح في ذلك، وأهم ما قام به الثوار هو نصب كمين معركة بئر الغرامة الذي شارك فيه عدد هائل من فرسان الهقار، وانتهى بقتل

---

1 – يحي بوعزيز، مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، ديوان المطبوعات الجامعية، ابن عكنون، الجزائر، 1999م، ص71.

1 – ميشال دو فوكو (1858-1916) ضابط فرنسي اعتزل العالم وتنسك في تامنراست وفيها قتل يراجع الفصل الرابع من هذا الكتاب.

2- Servant des plans، "La politique franco-Touareg"، In nouvelle Revue A1843، p3.

فلاترس و36 من رفاقه وقتل الملازم الاول "ديانوس" قائد الفرقة العسكرية وكان عدد القتلى الاجمالي 51 قتيلا من بين 78 عسكري ووقع الباقي في الاسر والملاحظ أنّ هذه المعركة كانت قبل ظهور شخصية أهتيفال السابقة الذكر، والتي وقعت في سنة 1881، ومن أهم المعارك الاخرى أذكر:

- معركة جانت التي وقعت عقب دخول عين صالح واحتلال المناطق المحيطة بها مع مطلع القرن 20م.

- معركة تيت يوم 1902/05/07م[1] ضد قوات الضابط "كوتنيس" "cottenes" ومنذ ذلك الحين ازداد عدد الحملات العسكرية نحو المنطقة بتدعيم وبتخيط من "لابيرين ودوفوكو" وقتل فيها حوالي 70 شهيدا جزائريا.

- معركة تامنراست سنة 1904.

- معركة إيليزي سنة 1908، وفي السنة الموالية اقتحمت جانت من طرف التوارق وظلت خاضعة لهم إلى سنة 1911 بسبب انشغال الفرنسيين بالحرب الدائرة في ليبيا بين التونسيين والايطاليين.

تجدّدت المعركة بين الطرفين وكان النصر حليف الجزائريين الذين ظلوا يسيطرون عليها إلى غاية 1916. رغم المحاولات الفرنسية العديدة لاقتحامها، وهكذا ظل العمل العسكري مستمر بين الطرفين، تكبد خلاله العدو خسائر فادحة ولعل من أهم المعارك التي يمكن ذكرها في تاريخ التوارق هي ثورة الشيخ آمود[2]. الذي اتبع أسلوب الكر والفر وتجنب الدخول في مواجهات مباشرة مع العدو، وبقي قادة جدد على المناطق الخاضعة له. فعلى منطقة عمر إدريس عيّن كل من

1- يحي بوعزيز، مع تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص72.
2- الشيخ آمود (1859-1928) ينتسب إلى قبيلة إيمنات، ربطته صلات قوية بالسلطة العثمانية التي اعترفت بنفوذه على منطقة جانت وضواحيها، حفظ القرآن الكريم، طلب العلم في عدة زوايا، عن صالح، تامنراست، كان ورعا وزاهدا.
الغالي غربي، (ملامح من مقاومة التوارق للتوسع الفرنسي في الصحراء الجزائرية)، الرؤية.

القائدين الشيخ العايب من قبيلة إيفوغاس بمساعدة أخيه حبه تول ومن أهم المعارك التي شاركا فيها معركة تازروفت مع مطلع سنة 1917 وتابنكورت وواد آوال. أما على منطقة إيليزي وضواحيها فقد عيّن القائد إبراهيم أقابدة بمعية الشيخ التومي، وكانت أولى معاركهم معركة واد ايميهرو، زيادة على معركة تين هضان التي استشهد فيها عدد هائل من الثوار. ومعركة عين الحجاج حيث انهزمت فيها القوات الفرنسية وقتل فيها الضابط "LE MARCHAL DES LOGIS" و18 قناصا وعشرات الاسرى و لم ينج منها الا ثلاثة جنود[1].

أما المنطقة الواقعة بين جانت وسلسلة جبال الهقار فقد عين عليها القائد أبة غابلي. واشهر معركة بها كانت بواد تهواق وإيلامات وتي هاوهاو وبقيادة متينة شبكي واضطر على إثرها الضابط "REQUITOT" إلى الانسحاب من المعركة والالتجاء إلى برج فلاترس بعد أن ترك وراءه أكثر من 20 قتيلا.

وأمام هذه الانتصارات الجزائرية قرر التوارق (الشيخ آمود) استرجاع جانت وهذه المرة باستخدام سلاح المدفعية وحوالي 400 مجاهدا، وتمكنوا خلال ثلاثة أيام من اقتحامها وطرد الحامية الفرنسية وتشريدها وأسر قائدها " MARECHAL DES LOGIS LA PIERRE" وهو ما دفع بفرنسا إلى اتباع الخطوات الاتية:

- تزويد الجيش بالعتاد والاسلحة وفرق الصبايحية والقناصة.

- ربط الحاميات والمراكز الفرنسية بوسائل اتصال برقية.

- زيادة التموين.

- تشجيع الاهالي على الانخراط في الجيش الفرنسي، ويلاحظ في هذا القسم أن الحركة السنوسية قدمت دعما كبيرا للجزائريين، ومن أجل بسط السيطرة على

---

1 - الرؤية، عدد1، السنة الاولى، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، جامفي/فيفري 1996، الجزائر، ص-ص 111-112.

الصحراء أرسلت فرنسا بعض الشخصيات ذات النفوذ المعنوي والروحي من ورقلة وعين صالح والمنيعة وتقرت إلى مناطق الهقار والطاسيلي قصد التفاوض مع زعمائها لإلقاء السلاح والاعتراف بالوجود الفرنسي مقابل كثير من الامتيازات. رفض الشيخ آمود هذه الاغراءات وفضّل المنفى إلى غاية أن توفي بمنطقة الغريفة الليبية سنة 1928[1].

وإلى غاية سنة 1914 تكون فرنسا قد مدت نفوذها إلى هذه المنطقة وذلك بعد جهود مظنية قام بها كثير من رجالاتها وعلى رأسهم "فيلات" "N.VILLATE" وإدوارد آرنو" و"موريس كورتي" و"دينو" "DINAUK" و"كليرجي" "CLERGET" و"فلامند" "FLAMAND" و"بان" "PEIN" وغيرهم[2].

القسم الصحراوي الغربي الجنوبي وأهم معاركه:

ليس من السهولة بمكان حصر معارك هذا القسم لكثرتها ولذلك سنشير إلى أهم المعارك فقط، ولمعرفة ذلك يجب الرجوع إلى سنة 1844 و1845 و1847 وهي سنوات تمثل الاولى، معركة واد إيسلي بالمغرب الاقصى، والثانية معاهدة لالة مغنية والثالثة توقف الامير عبد القادر عن الحرب، فمعاهدة مغنية على الحدود كانت غامضة حول حدود وهمية التي وضعتها بين الجزائر والمغرب، وهي تمتد من البحر المتوسط إلى ثنية الساسي حيث يتوقف خط الحدود، وتبقى المنطقة مفتوحة أمام كل الاحتمالات وبناء عليها مدت فرنسا يديها إلى التوسع نحو الجنوب، ففي سنة 1845 استولى "بيري" على قصور حميات وتيستيطين ورسول، وبرازيفه، وفي سنة 1847 أشرف على منطق أولاد سيدي الشيخ إلى واد الناموس.

مع مطلع النصف الثاني من القرن 19 ظهر في منطقة التخوم الجزائرية المغربية الثائر محمد بن عبد الله[3]، وانطلق في جهاده من سهل طريفة وكتب رسائله إلى

2- الغالي غربي، المرجع نفسه، ص-ص 114-115.

1 - يحي بوعزيز، مع تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص75.

2 - أحد الاشراف قدم من السوس وأخذ يعلم في زاوية كرزازة ويقال أنه صوفي على الطريقة الطيبية.

أعيان المنطقة يدعوهم فيها إلى الجهاد، ومن بين هؤلاء الحاج ميمون بن البشير على رأس بني سناسن، والمهاية والانجاد والانقاد. والشيخ محمد بن المكي، كان ذلك كله في سنة 1859. انطلقت الثورة في شكل معارك متفرقة كان أبرزها معركة سيدي زاهر (30 أوت 1859) وتكبد خلالها العدو خسائر فادحة وبعد فترة قصيرة وتجديدا للعزائم اندلعت مرة أخرى يوم 11 أوت 1859.

معركة أخرى قرب زاوية سيدي العنبري، ولوضع حد لهذه الثورة قام الجنرال "مارتنبري" "MARTIMPERY" بمعاقبة السكان الا أنه ينهزم أمام صمودهم وانسحب تاركا وراءه 3500 قتيلا –بسبب مرض الكوليرا أصاب جنوده[1].

ولاشك أن أهم المعارك التي عرفتها المنطقة هي التي كانت أثناء ثورة الشيخ بوعمامة (1881-1908) ويمكن تتبع ذلك في ما يلي:

– معركة مولاق 1881/05/19 تعود شرارتها إلى مقتل ضابط فرنسي برتبة ملازم وأربعة من حراسه عند ما حاولوا اعتقال الطيب الجرماني أحد أقارب بوعمامة يوم 81/04/22 فتحركت قبائل ترافي، عمور، الشرفة، أولاد سيدي أحمد المجدوب، حميات جعابنة، وسكان القصور الجنوبية، بنو جيل، وأولاد جرير، وشارك أولاد سيدي الشيخ الغرابة بإمدادات عسكرية هائلة، وتكوّن الطرف الفرنسي من:

– 03 فيالق مشاة (زواف، لفيف أجنبي، رماة) بقيادة الكولونيل سوينه SUINEY.

– 04 سرايا من قناصة جيش إفريقيا الرابع بقيادة الكولونيل INNOCENTI.

– 1 فرقة مدفعية.

– فرق متنوعة مساعدة.

---

1 – سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية، المرجع السابق، ص383.

- 3 فرق من القوم (قوم سعيدة، فرندة، تيارت بقيادة الاغا قدور ولد عدة.

- 2500 جملا محملة بالمؤونة يحرسها 600 أهلي، ويخضع هذا التنظيم لقيادة الجنرال "كولينيون دانسي" "COLLIENON DANCY" الا أنه سرعان ما تخلى عن قيادها –مرض– في البيض لصالح الكولونيل إينوسيّ[1].

ومن جانب بوعمامة كان تحت قيادته 2300 رجلا (فارس–مشاة) تتوزعهم القبائل كما يلي:

- قبائل ترافي 700، أولاد زياد 180، الحرار 150، أولاد سيدي الشيخ الغرابة 250، مغرار 100، أولاد عمور 170، أولاد سيدي التاج 50، وسكان القصور الجنوبية 500 و190 من قبائل أخرى، هذه الحشود أدت إلى الاصطدام يوم 19 ماي 81 في مولاق، ورغم قوة مدفعية العدو انتصر الثوار ومن نتائج هذه المعركة:

- الطرف الفرنسي: 37 قتيلا، 16 جريحا منهم ضابط، 4 مفقودين (في حين عدد ضحايا الطرف الجزائري 400 شهيد ولقد تضاربت الروايات بين مقلل ومكثر في الخسائر البشرية[2]. ومن نتائجها أيضا هو إرغام ايندسيّ على الاتجاه نحو خيضر في الشمال بدلا من العودة إلى البيض "جرنيل" وبمجرد أن وقعت هذه المعركة اختفى أينوسيّ وحل محله الجنرال "ديتريه" "DETRIE" وهو ما فسح المجال لــ: بوعمامة أن يتجه نحو مدينة الابيوض سيدي الشيخ، لإعداد مسيرته القادمة.

قام الشيخ بوعمامة بمسيرتين نحو الشمال، الاولى في جوان 1881 حيث اقترب من بلدة سعيدة ومعسكر وهاجمت قواته بعض القبائل الموالية للفرنسيين وحطمت منشآت الشركة الفرنسية الجزائرية لاستغلال الحلفا ببلدة خلف الله، وقطع الخط الهاتفي الرابط بين فرندة والبيض وبعد 23 يوما رجع المجاهدون إلى بلدة بوسمعون

---

1 – عبد الحميد زوزو، ثورة بوعمامة (1881–1908) جانبها العسكري (1881–1883)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص13.

2– عبد الحميد زوزو، المرجع نفسه، ص17.

جنوبا يوم 21 جوان 1881[1]، وفي شهر جويلية قام بالمسيرة الثانية نحو الشمال أحاطت فيها قواته بالشط الشرقي وعادت إلى بلدة التواجر بعد أن خاضت معارك شرسة أهمها:

معركة الخيذرو ولهاصي:

نتيجة لتدنيس قبة سيدي الشيخ وتهديمها تحركت قبائل العمور وخاضت معارك دفاعية في جبل بني سمير ومزي ومير الجبال جنوب غربي عين الصفراء خلال شهري أكتوبر ونوفمبر وفي شهر ديسمبر وصلت القوات الفرنسية إلى قصر مغرار الفوقاني ثم التحتاني، وفي هذه الاثناء دمرت مساكن بوعمامة. وفي بني ونيف دافع أنصاره عن أنفسهم، وفي يوم 82/02/02 خاض المجاهدون معركة فندي تراجع بوعمامة بقواته وهو ما دفع بالفرنسيين إلى التراجع نحو عين الصفراء وفي يوم 82/02/26 جرت معركة تيقري وهاجم الثوار من خلالها قوات الضابط دو كاستري في تيقري وترتب عن ذلك خسائر هائلة في صفوف الفرنسيين وهو ما جعلهم يثأرون من هزيمتهم بالهجوم على قبائل بني غيل المغربية في واد الشارف بالمغرب في شهر ماي 1882م. ومن هناك ظل الشيخ بوعمامة يتنقل في المنطقة حتى حط رحاله بمنطقة دلدول حيث احتظنته قبائل أولاد عبو التابعة لدائرة آوغروت، إدرار، وظل يراسل في شيوخ زوايا المغرب والطرق الصوفية وخاصة الدرقاوية بتافيلالت[2]. وفي هذا التاريخ تشهد الصحراء ثورات عدة كلها متضامنة من الشرق إلى الغرب.

---

1 – المرجع نفسه، ص27.

2 – أحمد العماري، مشكلة الحدود الشرقية بين المغرب والجزائر واستغلالها في المخطط الفرنسي للسيطرة على المغرب من حوالي 1830-1902، رسالة ماجستير في التاريخ، كلية الاداب والعلوم الانسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، 1981، ج3.

معركة مغرار:

قام بها جماعة من أنصار بوعمامة ومن أولاد مولات من توات في سنة 1886 ضد الموالين لفرنسا وفي السنة الموالية قامت جماعة من الشعابنة والطوارق بعمليات استشهادية في تلك المناطق، ومن ذلك أيضا هجوم أنصاره على الفرنسيين في حاسي بوخنفوس في خريف 1891[1]. ومن جهة فرنسا فإنها دعت إلى التعجيل باحتلال الصحراء ومن بين الذين دعوا إلى ذلك الضابط "رض" الذي دعا إلى مد السكة الحديدية بعيدا نحو الجنوب وكتب يقول "ستكون أكثر قوة من البدو الذين يسيطرون على هذه المنطقة" وتطبيقا لهذا الامل تم الاستيلاء على المنيعة، وتسهيل الاتصال بقورارة وتوات وتاديكالت.

معركة قورارة وتوات واحتلالهما:

إن الانطلاق في احتلال هذه المناطق سيكون من الصحراء الوسطى، (القسم الاوسط). ففي يوم 1900/04/27 قامت فرنسا بإرسال طابور العقيد مينسترال "MENESTEL" لإخضاع قصور قورارة انطلاقا من المنيعة قدرها 850 جندي ومدفعين الا أنه وجد مقاومة شرسة من السكان جعلته يطلب المساعدة من الحامية الفرنسية بالبيض بفرقة قدرها 400 جندي وبهذه القوة تمكن من اقتحام تيميمون يوم 1890/05/12، وواصل سيره يوم 31 ماي نحو قصور زوا ودلدول.

وفي يوم 1901/01/08 تشكل طابور قوي رحل من تيميمون يوم 26، وعندها قام الجنرال سرفيار "SEAVIERE" بأخذ جميع احتياطاته، ولنجاح هذه المهمة رصدت لها فرنسا طابورين آخرين الاول بقيادة سرفيار (800 جندي و4 مدافع والثاني تشكل من حوالي 300 جندي، وكانت الانطلاقة من تيديكالت لتلتقي مع طابور الجنرال الذي انطلق يوم 30 جانفي من تيميمون في بلدة تيمي، وبعدها

1- خليفي عبد القادر، "فرقة الشيخ بوعمامة في الجنوب الكبير"، مجلة جامعة الامير عبد القادر، عدد 10، دار البعث، قسنطينة، رجب، 1422هـ/20 سبتمبر 2001، ص191.

تدخل القوات الفرنسية إقليم توات وتخضعه لصالحها، ووقعت أدرار عاصمة الاقليم في قبضة العدو يوم 1901/02/10[1].

ومع مطلع سنة 1901 حاولت إخضاع منطقة الساورة وتنصيب حاميات عسكرية بها ومن بين هذه الحاميات أذكر حامية تاوريرت وتاغيت تحت القيادة العليا للعقيد "بييه" "BILLET" وفي يوم 1901/03/01 احتلت بني عباس ونقل مركز مكتب الشؤون الاهلية من إيفلي إلى بني عباس، وأشرف على هذا الاحتلال الجنرال "رسبورغ" "RISBOURG" قائد الناحية العسكرية بوهران الذي استقر ببني عباس وأرسل هذا الاخير إلى الجنرال "سرفيار" لالتقاء قواتهما وتلاحمهما، وقد حدث هذا في قصابي يوم 01/04/13، وبعد هذا التنظيم العسكري عينت السلطات على رأس هذا المركز السيد "لابيرين" قائد أعلى للقوات الصحراوية[2].

قام "لابيرين" بتنظيم فرق الصحراء لضمان التوسع، ولذلك أنشأ الاقليم الصحراوي الذي سوف ينفصل في الشمال ابتداء من 02/12/31 وحينها تم إسناد النقاط الهامة في الصحراء توقرت، غرداية، عين الصفراء، الواحات الغربية إلى ضباط الشؤون الاهلية تحت سلطة القائد الاعلى المتصل مباشرة بالوالي العام للجزائر، ونظمت ثلاثة سرايا صحراوية جديدة خلال جويلية 1902 لتعويض الوحدات التقليدية، ورغم ذلك تندلع معارك أخرى أهمها:

– معركة بئر قصر الفروج يوم 1903/30/29 قام بها أولاد جرير ضد فيلق عسكري أثمرت قتل 08 فرنسيين منهم العريف "فورييه لوفي" "FORIER LOVY" وستة جرحى، وغنم العديد من الاسلحة والذخيرة، وفي يوم 06 ماي قام أيضا أولاد جرير وبني غيل (1500 رجل منهم 600 فارس بالهجوم على قافلة متجهة نحو عين عباس –أسفرت عن قتل العديد من الفرنسيين وعرقلة تقدمهم نحو الجنوب.

---

1 – إبراهيم مياسي، المرجع السابق، ص115.

2– إبراهيم مياسي، المرجع نفسه، ص117.

إخضاع منطقة الساورة وأهم معاركها:

خلال هذه الفترة شهدت المنطقة معارك عسكرية حاسمة منها:

- معركة الموقار يوم 1903/09/02 وقبلها كان هجوم تاغيت، وفي هذه الاثناء عينت فرنسا العقيد "ليوتي" "LYAUTEY" على قيادة عين الصفراء لمراقبة ضواحي أولاد جرير وذوي منيع في حوض زوزفانة، وتمكين القوات الفرنسية من احتلال منطقة توات عن آخرها وهكذا احتازت القوات الفرنسية جبل بشار في 11 مارس واحتلت كولومب بشار ونصبت فيه مركز عسكري لتصبح عاصمة المنطقة.

يوم 03 ماي 1904 اندلعت معركة نقلة بردا ذوي منيع والبربرية وعلى إثرها تدخلت القوات الفرنسية إلى جانب ذوي منيع تحت قيادة "بيرون" "PIERRON" وبمشاركة فرقة بشار بقيادة الملازم "كانافي" "CANAVY" وفرقة بني عباس بقيادة "إيفري" "IVRY" التي اجتمعت بايغلي للانطلاق في ملاحقة الثوار في عقلة برداو استطاعت أن تشتتهم وتفك منهم 35 جملا، وإثر ذلك استمرت التنظيمات للمناطق المحتلة فأنشأت السلطة الاستعمارية الكتيبة الصحراوية للساورة وألحقت إيغلي بمنطقة بني عباس وعوضت النقيب "رينو" "RENAULT" قائد بني عباس منذ احتلاله بالنقيب "دوري" "DAURY" أول قائد للكتيبة الصحراوية بالساورة، ولكنه عوّض قبل نهاية 1904 بالنقيب "مرتان" "MARTIN" لإنجاز المشاريع التوسعية[1].

في أواخر 1904 اجتمعت قوة من شعابنة بوعمامة والبربرية وذات تسليح جيد وفي يوم 04/12/11 أعلنت عن هجوم قوي ضد دورية من الكتيبة الصحراوية للقورارة —معركة القورارة– تم أسر وقتل العديد من الفرنسيين، وفي يوم 14 ديسمبر هاجمت قافلة البيض ونهبت منها حوالي 40 شخصا وحوالي 1000 جملا. وهو ما أدى إلى استنفار القوات الفرنسية في بني ونيف وبشار وتاغيت وبني عباس

1 – المرجع نفسه، ص119.

وتيميمون لملاحقة الثوار ومطاردتهم. ولذلك اجتمعت قوة كبيرة ضمت كتيبة قورارة تحت قيادة الملازم بلنية "BELENE" والكتيبة الصحراوية بالساورة تحت قيادة الملازم "روسو" "ROUSSEAU" وراكبي الجمل من تيديكالت تحت قيادة الملازم "فوانو" "VOINOT" والكل تحت قيادة النقيب مرتان، وتم الاشتباك يوم 12/31 بغارات دويفة شمال مريجة[1].

ومع مطلع سنة 1906 قامت القوات الفرنسية بهجوم مفاجئ ضد شعابنة الشيخ بوعمامة كما قام النقيب "مرتان" بجولة من 2/17 إلى 01 مارس 1906 للتعرف على طابلبالا ووادي داورا بالعرق الرواي جنوب غرب بني عباس لاحتلالها فيما بعد كما قام بجولة أخرى استثنائية من 12 جوان إلى 22 جويلية إلى صويتي شمال غرب بني عباس على حواف مرتفع كمكام، وفي شهر مارس 1908 اندلعت معركة قرب داوارا لمحو البعثة الاستطلاعية المتجهة نحو الغرب، فقامت بمحاصرة القوات الفرنسية المخيمة بالحمادة ليلا وانقضوا عليها بشكل قوي وقتل فيها الملازم "رونيه" "REGNIER" وجرحوا العديد من أفرادها مقابل شهيدين و15 جريحا وسميت هذه الواقعة بمعركة الحميدة[2].

وفي أواخر شهر سبتمبر 1908 تكونت قوة هائلة تحت قيادة بوجمعة بن جمعا من أولاد جرير وانحدرت مع واد قيل وزوزفانة لطرد العدو واعترضت سبيلها قوات مركز بشار وإيغلي وبني عباس في معركة هائلة فقد العدو خلالها عدة جنود وضباط على إثر ذلك قام الملازم "ريوتو" "RIOTTOT" في جويلية 1909 بجولة تفقدية بالعبادلة وتعرف النقيب "كونسال" "CONCEL" على عرق ايقيدي أواخر سنة 1909 ومطلع سنة 1910.

---

1 – المرجع نفسه، ص120.

2 – المرجع نفسه، ص122.

في سنة 1910 تم احتلال تابلبالا –واحة– كما قام النقيب "بيريو" "BERRIAU" خلال شهر أفريل سنة 1911 بزيارة قير الاسفل بمنطقة بردا بوعلاس ورجع في شهر ماي عن طريق تابلبالا.

في ديسمبر 1911 انطلقت قوة من راكبي الجمال والقوم تحت قيادة النقيب "ماس-لاتري" "MAS-LATRIE" قائد كتيبة توات لتستقر بمنطقة عقيلات محمد ولتراقب الثوار عن كثب.

وفي يوم ماي 1911 اندلعت معركة القطارة بين الفرنسيين والجزائريين وحوالي 150 مجاهدا ولقد شارك فيها عدد هائل من المغاربة، أولاد جرير، وخلال 30/29 نوفمبر 1912 اندلعت معركة بئر زمالة ومعركة فريزم على تخوم عرق الشاش كآخر مرحلة لاحتلال هذه المناطق[1].

نماذج من مشاريع التوسع الفرنسي في الصحراء الجزائرية:

تمهيد: لاشك أنه لكل دولة استعمارية خطة عمل تسعى من خلالها لفرض سيطرتها وترسيخ وجودها الفعلي بالمناطق المستهدفة، وتعتبر فرنسا إحدى أهم هذه الدول التي ما انفكت تعمل على بسط سيطرتها على الجزائر في ثلاثينيات القرن 19م، ونظرا لصمود الشعب الجزائري فإنها لم تتمكن من فرض سيطرتها على القسم الشمالي من البلاد الا بعد مرور حوالي عشرون سنة (1830-1850)، وإثر ذلك راحت تتطلع إلى التوسع نحو الجنوب الجزائري، ونظرا للخصوصيات القاسية التي تتميز بها الصحراء –فإنها قامت بمشاريع عدة لإحكام سيطرتها عليه، مشاريع جاءت متباينة في زمانها ومكانها وطبيعتها، فمنها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والعلمية، ولكنها مشتركة في الهدف، وسأحاول في هذا الفصل التطرق إلى

1 – المرجع نفسه، ص–ص124-125.

ثلاثة مشاريع رئيسية أراها ساهمت وبصورة مباشرة في تشجيع التوسع العسكري نحو الجنوب الجزائري، وهي تكمن في ما يلي:

1 – البعثات الاستكشافية.

2 – مشروع السكة الحديدية.

3 – مشروع إبطال فريضة الجهاد.

1 – مشروع البعثات الاستكشافية:

قبل الاحتلال الفرنسي للجزائر كانت قد أرسلت بالعديد من الطلائع الاستكشافية للجزائر، طلائع تحت غطاءات مختلفة تارة باسم التجارة وتارة باسم السياحة، وما الدور الذي قام به الضابط "بوتان"[(1)] عندما كلفه وزير البحرية بالتوجه إلى مدينة الجزائر لجمع المعلومات حول إمكانياتها الدفاعية الا دليلا على ذلك، ولاشك أن هذا التقرير الذي قدمه إلى وزارة الحربية قد ساهم فيما بعد في احتلال الجزائر بالنزول في منطقة سيدي فرج[(2)].

ولم يكن تفكير فرنسا في توسعها العسكري نحو الصحراء الجزائرية وليد تاريخ الاحتلال أو القضاء على المقاومة الشعبية في المناطق الشمالية، وإنما يعود إلى حوالي سنة 1824م إذ تمكن في هذا التاريخ وإلى غاية سنة 1828م المـُوفد "روني كاي"

1- ضابط فرنسي تم تعيينه في هذه المهمة الخطيرة بأمر من نابليون بونابرت الذي كان يتطلع لاحتلال الجزائر لولا الظروف الصعبة التي عرفتها فرنسا آنذاك، وصل إلى الجزائر يوم 1808/05/24 على متن سفينة تدعى لوركان وبعد أدائه لمهمته عزم على الرجوع إلى بلاده، الا أنه وقع في الاسر من طرف الانجليز وهو ما دفعه إلى إتلاف التقرير الذي أعده، فأخذ إلى مالطا الا أنه تمكن من الفرار إلى بلده حيث ظلت ذاكرته محتفظة بما دونه في تقريره السالف، يراجع: محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث بداية الاحتلال، ص21.

2 – أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث بداية الاحتلال، ط3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص21.

من الظفر بلقب أول مغامر فرنسي في عمق الصحراء الجزائرية، إذ عبرها انطلاقا من السنغال حتى مدينة تمبكتو[1].

وعاد عبر طريق تافيلالت إلى المغرب الاقصى وزار كلاّ من فاس والرباط وطنجة، ولقد كان يتطلع إلى اختراق الصحراء الافريقية الكبرى من السنغال إلى مصر والحجاز في زي تاجر متظاهر بالاسلام، الا أن الصعوبات التي واجهته حالت دون ذلك، فاكتفى بالوصول إلى تمبكتو ومنها توجه نحو المغرب.

ومع مطلع الخمسينيات بدأت الرحلات الفرنسية تزداد نحو الجنوب الجزائري، فقام الدكتور الالماني "هنري بارث" برحلتين رئيسيتين الاولى في سنة 1849م والثانية في سنة 1855م من طرابلس عبر غدامس وغات بفزان وإلى تشاد وتمبكتو عبر قورارة وتوات وتيديكيلت، وكان برفقته صديقيه "ريتشارد صون" و"أوفريج" اللّذين فقدهما في هذه المغامرة[2]، وفي نفس الفترة قام "إدوارد فوجيل" برحلة انطلقت من طرابلس إلى أعماق الصحراء الجزائرية ولقي حتفه بمدينة الوادي سنة 1856م، وفي السنة الموالية تمكن المغامر "بونمان" من الوصول إلى غدامس[3] عبر منطقة سوف[4].

---

1 – تمبكتو إحدى المدن الاستراتيجية والحيوية تقع على ضفاف نهر النيجر، ويقال أن اسمها مشتق من بئر بكتو، وهو اسم لامرأة تارقية، وبفضل موقعها الاستراتيجي شكلت سوقا تجارية صحراوية للتجار من مختلف الجهات وخاصة من مصر وفزان وغدامس وتوات وفاس وغيرها من المدن الاخرى، ولقد طرأت على المدينة العديد من التغييرات عبر مراحلها التاريخية يراجع: الاطلس العالمي، ص41، الصحراء الكبرى وشواطئها، ص–ص 311-316.

2 – يحي بوعزيز، مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999، ص66.

3 – غدامس إحدى المدن الحيوية والاستراتيجية، تقع حاليا على الحدود الليبية الجزائرية، ونظرا لموقعها الجغرافي وتوفرها على عناصر الحياة، فإنها شكلت قاعدة تجارية وعسكرية عبر مراحلها التاريخية التي مرت بهم، يراجع: الاطلس العالمي، ص12، الصحراء الافريقية الكبرى وشواطئها، ص–ص 135–136.

4 – يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص67.

ولعل من أهم هذه البعثات الاستكشافية بعثة "دوفيري هنري"[1] التي تعددت الروايات التاريخية في الحديث عنها لدرجة أن اعتبرها البعض مجرد أسطورة لا غير! وقبل أن يباشر رحلاته الرسمية قام برحلة استطلاعية إلى مدينة القليعة لأول مرة التي تنكر له سكانها، وبهذا الصدد كتب بقول: قد تبدو رحلتي إلى القليعة لأول مرّة هزيمة حيث أنني طردت من هذه المدينة واضطررت تحت التهديد إلى الخروج منها ليلا في ظروف مشينة، ومع ذلك فأنا أعتبر هذه الرحلة ناجحة... فأنا قد واجهت الشعانبة الذين أقسموا أنهم سوف يذبحونني في القليعة، وقد أقمت يوما وليلتين في هذه المدينة شبه سجين ولكن ذلك لم يضايقني... فقد أدركوا أنه لا يمكن إخافتي، والانطباع الذي أحمله هو أن هذه الطريق قد انفتحت الان"[2].

ومن خلال هذا الانطباع الذي خرج به من خلال هذه الزيارة ندرك من دون شك أن هناك جهات معينة دفعته إلى هذا السبيل حتى وإن لم يشر إليها في تصريحاته، والسؤال المطروح هو هل تمكن فعلا من تحقيق أهداف هذه الجهات؟ هذا ما سنعرفه في العناصر الاتية.

باشر رحلته الصحراوية يوم 8 ماي 1859م من مدينة سكيكدة باتجاه مدينة بسكرة ومرورا من قسنطينة وباتنة، ليصل إليها مع مطلع شهر جوان، وفي اليوم الثالث عشر منه كان قد حط رحاله بالقرارة بميزاب، ومن هناك توجه إلى غرداية التي وصلها يوم 21 جوان ثم توجه نحو منطقة متليلي أين التقى فيها بالعديد من سكان التوارق، ولم يتردد في ربط صلاته بهم والتعرف على بعضهم، ومنها توجه

1 – ولد في مدينة باريس سنة 1840م، درس التجارة في ألمانيا وهو لم يتجاوز الرابعة عشر من عمره، ونظرا لذكائه الخارق واصل دراسته في هذا التخصص في إحدى المدارس الالمانية في الفترة ما بين 1855-1857، الا أنه لم يواصل مشواره التعليمي نظرا لسيطرة طابع حب المغامرة على شخصيته خاصة في المناطق الصحراوية، وفي سنة 1857م قام بزيارة إلى الجزائر تعرف خلالها على الهضاب العليا والاغواط والاوراس، ثم عاد إلى بلده، وفي سنة 1859 قرر العودة من جديد إلى الجزائر، ومنها توجه إلى القليعة في أول استطلاعاته للصحراء الجزائرية. يراجع: الصحراء الكبرى وشواطئها، ص84.

2– إسماعيل العربي، الصحراء الكبرى وشواطئها، المرجع السابق، ص84.

نحو المنيعة التي وصلها يوم 1 سبتمبر من نفس السنة، الا أنه لاقى فيها نفس المصير الذي لاقاه في القليعة.

لم يتردد سكان هذه المدينة في إلقاء القبض عليه واعتقاله، ثم سرعان ما تلقى أمر بمغادرة المدينة فورا أو يُطرد بالقوة وعلى إثر ذلك عاد أدراجه إلى متليلي وفي طريقه إلى غرداية عرج على الاغواط أين تعرف من خلالها على العديد من العادات والتقاليد الصحراوية، كما حاول أن يربط صلاته بأهل توات، وفي أواخر سنة 1859م غادر الاغواط باتجاه مدينة قسنطينة لأخذ قسط من الراحة[1].

وبعد استراحته في مدينة قسنطينة توجه نحو مدينة بسكرة في أوائل شهر فيفري 1860م ثم إلى واد سوف وبعدها عرج على الجريد التونسي ومنه توجه نحو قابس وقبيلي ونفزاوة، ثم عاد أدراجه قليلا نحو الشمال حيث توزر، وفي اليوم الثالث من شهر أفريل قرر العودة إلى مدينة بسكرة عبر طريق شبيكة وتامغزا ومر بكل من النقرين وواحات عين الناقة وسيدي عقبة، إلى أن دخل بسكرة في العاشر من شهر أفريل، والملاحظ هنا حول هذه التحركات أنها كانت تتسم بنوع من السرعة المفرطة التي تقتضي منه السير ليلا ونهارا، وهذا إما لخوفه من المخاطر التي كانت محدقة به –قطاع الطرق مثلا– أو لتوفره على وسائل سفر متميزة!.

وأثناء وجوده في مدينة بسكرة كلفه الوالي العام للجزائر آنذاك بالاستعداد للقيام برحلة نحو بلاد التوارق، وعلى إثرها غادر المدينة باتجاه الوادي، ومنها توجه نحو غدامس التي وصلها يوم 11 سبتمبر 1860م ومكث فيها إلى غاية شهر ديسمبر. وخلال ذلك تعرف على طبائع سكانها من عادات وتقاليد، كما التقى بشخصيتين رئيسيتين من شيوخ التوارق هما: الشيخ عثمان والشيخ أمنيكول إيخنوخن[2]، وفي

---

1 – مياسي إبراهيم، توسع الاستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي الجزائري (1881-1912)، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، 1990، ص54.

2– إسماعيل العربي، الصحراء الكبرى وشواطئها، المرجع السابق، ص86.

هذه الاثناء وصلته أنباء تتحدث عن تطلع نابليون الثالث إلى إعداد كتاب حول الصحراء الجزائرية، وهو ما زاده تشجيعا على أن يكون هو الشخص الذي يحقق له هذا الهدف.

ولكن الظروف الصحية والمالية التي واجهته لم تكن تؤهله إلى تجسيد هذا التطلع لولا المساعدات المالية التي وصلته في إطار ما يعرف بمنحة الحكومة والمقدرة بألفين فرنك فرنسي، وعلى إثرها انطلق من غدامس نحو غات وبمساعدة الشخصين السابقين، وبعد مسالك صعبة عبروها تم الوصول إليها. ولسوء حظه فإنه لم يجد الاستقبال الحسن من سكانها المقدر عددهم بحوالي 4000 نسمة، إذ مُنع حتى من الحصول على الماء، وربما ذلك يعود إلى تخوفهم على مصالحهم الاقتصادية، في حين نجد أنه وجد حسن الاستقبال من قبل التوارق فاندمج معهم واطلع على بعض عاداتهم وتقاليدهم وطقوسهم الدينية، كما حاول أن يتعلم لغة تماشق الهجائية – تيفناغ- وبعد أن مكث حوالي سنة كاملة بمنطقة توارق طاسيلي غادرها باتجاه مرزق الواقعة ضمن التراب الليبي، ومن هناك توجه نحو فزان ثم طرابلس، ليتوجه مباشرة إلى الجزائر أين قدم تقريره إلى الوالي العام بها.

ولم يسعفه الحظ في مواصلة رحلاته الاستكشافية لأنه أصيب بمرض فقدان الذاكرة، ورغم ذلك نُشر له كتاب يُعد من أهم المصادر التي تتحدث عن الصحراء الجزائرية، كتاب بعنوان: توارق الشمال[1]. وفي خلال شهر نوفمبر 1860م قام كل من الرائد "كولونيو" والملازم "بوران" التابعين لدائرة البيض بتنسيق رحلتهما مع إحدى القوافل التجارية[2] التي تنشط بين سعيدة والبيض، وتتبادل السلع مع قوافل أخرى في منطقة الابيض سيدي الشيخ.

1- إسماعيل العربي، الصحراء الافريقية الكبرى وشواطئها، المرجع السابق، ص87.

2- تظم حوالي 10000 جملا و3000 رجلا وامرأة و16000 من الاغنام فضلا عن رجال الحراسة.

انطلقت هذه القافلة باتجاه الجنوب خلال الشهر السالف، الا أن وجودهما برفقتها أثار نوعًا من الاستياء والتذمر في أوساط السكان الذين عبروا أراضيهم، وعندما دخلت إلى تيميمون السوق التجارية لإقليم قورارة امتنعت جماعة القصبة عن فتح أبواب المدينة لها. واشترطت إبعادهما عن القافلة لمسافة سير يومين، فما كان منهما الا مغادرة تيميمون إلى تاورسيت ثم توجها إلى تيمي وتوات(1).

ومع مطلع الستينيات بدأت رحلة "جيرهارد روهلفس"(2) ورغم الظروف المالية التي كان يمر بها –يتوفر على 05 جنيه استرليني- فإنه انطلق متوجها نحو مدينة تافيلالت المغربية، ورغم الاحتياطات التي قام بها –حلق رأسه واعلن عن إسلامه وختن نفسه- ورسائل التوجيه التي تسلمها من شريف وزان بالمرور فإنه أُخذ أسيرا لديهم، الا أن الختان الذي أجراه لنفسه قد شفع له عندهم، وحتى أن دليله قد غدر به فجأة، الا أن هذا لم يثنه عن مواصلة رحلته بالدخول ضمن التراب الجزائري عبر جنوب وهران، ولكن أحداث ثورة أولاد سيدي الشيخ دفعته إلى التوغل في التراب المغربي عائدا إلى تافيلالت، ومن هناك توجه إلى توات ثم إيغلي وبني عباس وبعدهما توجه نحو أدرار، ومن هناك عرج إلى الشرق، وفي يوم 17 سبتمبر 1864م دخل إلى عين صالح، ويعتبر "روهلفس" المستكشف الاوروبي الثاني بعد "الميجور لانج" الذي وصلها.

ونظرا للضائقة المالية التي كان يمر بها قرر مجلس شيوخ بريم والجمعية الجغرافية في لندن تزويده بمبلغ من المال، وعلى إثر ذلك توجه نحو ليبيا عبر الصحراء الجزائرية؛ وبمجرد وصوله إلى طرابلس عقد العزم على التوجه نحو مدينة تمبكتو عبر

1- إبراهيم مياسي، المرجع السابق، ص57.

2 – ولد في سنة 1832م بضواحي مدينة بريم، زاول تعليمه الاول في مسقط رأسه، ومنذ سن السادسة عشر انخرط في صفوف الجيش ونال رتبة ملازم أول، ثم انخرط في سلك اللفيف الاجنبي لحبه المغامرة في الصحراء الجزائرية، تعلم اللغة العربية في بلاد القبائل وفي سنة 1861 غادر سلك اللفيف الاجنبي نحو مدينة طنجة عبر إحدى البواخر وكان حلمه الوصول إلى مدينة تمبكتو.

منطقة الهقار، فتحرك باتجاهها إلى أن انعدم الامن عبر الطريق والصراع المحتدم بين بعض قبائل التوارق دفعه إلى تعديل خطته.

فسافر إلى فزان ومن هناك توجه نحو تشاد التي وصلها خلال شهر جويلية 1868م؛ ثم انتقل بعدها إلى أوروبا بعد أن قدم معلومات هائلة عن الصحراء الجزائرية وأقاليمها في مذكراته الشخصية.[1]

وفي نفس فترة الستينات انطلقت بعثة كل من "ميرشير" و"بولينياك" و"فاتون" والطبيبين "هوفمان" وإسماعيل بوضربة باتجاه غدامس في سنة 1862م، وهي البعثة التي أعطت دفعا قويا للتوغل الفرنسي في الجنوب قصد السيطرة على الطرق التجارية والثروات الاقتصادية الظاهرية آنذاك، ولأنها تمكنت من إبرام اتفاقية مع زعيم التوارق إيخنوخن يوم 26 نوفمبر 1862م، ومن أهم البنود التي نصت عليها:

1 – إقرار الصداقة والتبادل التجاري بين السلطات الفرنسية ورؤساء مختلف فروع وقبائل التوارق.

2 – يلتزم التوارق بتسهيل وحماية عبور المفاوضين الفرنسيين لبلادهم ذهابا وإيابا إلى بلاد السودان، وحماية بضائعهم التجارية على أن يدفعوا المكوس العادية.

3 – تلتزم السلطات الفرنسية وزعماء التوارق بفتح طرق التجارة للفرنسيين إلى بلاد السودان.

4 – تهيئة الاجواء المناسبة لنشاط تجاري مستمر بين الطرفين[2].

وخلال فترة السبعينات يتضاعف عدد هذه البعثات وهنا أكتفي بالاشارة إلى ثلاثة بعثات رئيسية، أولها بعثة الجنرال "قاليفيه" التي بدأ في التحضير لها منذ سنة 1866م،

---

1 – إسماعيل، العربي، الصحراء الكبرى وشواطئها، المرجع السابق، ص، 91.

2– يحي، بوعزيز، مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، المرجع السابق، ص– ص 124–125.

بدراسته النظرية وإطلاعه على عادات وتقاليد الصحراويين في كتب التاريخ والجغرافيا التي ألفت حولهم، وفي 6 ديسمبر 1872م، غادر مرسيليا باتجاه الجزائر، ومنها توجه نحو الجنوب مرورا بكل من الاغواط وغرداية نحو متليلي التي لقي حسن الضيافة من لدن شيخها سليمان، وفي يوم 4 فيفري 1873م أعلن عن بداية رحلته الحقيقية بقوله: اليوم أبدأ –أخيرا– الرحلة الاستكشافية الحقيقية، حيث سأتواجد في أصقاع ليست معروفة كثيرا، وسوف أجتاز أرضا لم تطأها قدم أوروبي –من المنيعة إلى عين صالح–[1].

وفي صبيحة ذلك اليوم تحركت قافلة كبيرة[2] متوجهة من متليلي إلى عين صالح وكان وصولها إلى المنيعة في اليوم الثالث والعشرين وفي اليوم السابع والعشرين تتوجه نحو عين صالح، لتصل مشارف المدينة يوم: 6 مارس الا أن الابواب اغلقت في وجهها من طرف السكان، ولم يكتب لها النجاح الذي كان متوقعا. ولكن الوصف الذي تركه لنا حول هضبة تادميت كان كافيا لإعطاء صورة مجملة عن المنطقة أما البعثة الثانية فقد قام بها ثلاثة شخصيات هم: "دورنو" و"دوبرة"، و"جوبار"، فدورنو[3] كان قد التقى في مدينة قسنطينة بإسماعيل بوضربة الذي سيساعده من دون شك في تحقيق رغبته، فتوجه نحو بسكرة ثم تقرت أين التقى بجوبار الذي انضم إلى الثنائي "جوبار" و"دورنو". نظرا لامتهانه حرفة التجارة وتطلعه في الوصول إلى مراكز تجارية أخرى في الصحراء مثل غدامس وغات،

---

1 – إبراهيم مياسي، المرجع السابق،ص .

2 – تضم كل من الشيخ أحمد بن أحمد الشعانبي رفقة ابنه الصغير –10 سنوات– وأخويه موسى وعبد القادر وخادمي سولييه وكاتبه الخاص بافو وقدور خادم الشيخ أحمد و14 من الحرس المزودين بالبنادق والعصي، وراعيين لرعي الجمال والشريف مولاي محمد الطيب، وهي في معظمها تضم حوالي 26 شخصا و10 جمال و3 خيول.

3 – شغل منصب معلم في منطقة فرندة، كان طموحا إلى حب المغامرات والتعرف على الصحراء الجزائرية، ومنذ سنة 1873م عزم على تحقيق رحلته.

ولذلك تكفل بتحضير الجمال ولوازم السفر من الوادي، وفعلا تمكن من تجهيز قافلة هائلة وأسندت الدلالة فيها إلى الدليل أحمد بن زرمة[1].

بدأوا رحلتهم من مدينة تقرت يوم 1 فيفري 1874م باتجاه غدامس إلى أنهم لاقوا حتفهم للظروف الطبيعية القاسية التي واجهتهم أو لتعرضهم لهجوم من طرف سكان الواحات الصحراوية. وخلال شهر ديسمبر 1874متبدأ بعثة الكولونيل "فلاترس"[2] التي ضمت عددًا هائلاً من الضباط الفرنسيين[3]، تم تعيينهم خلال شهر ديسمبر؛ وبعد أن أخذت البعثة كامل استعداداها عقدت أول اجتماع لها في مدينة بسكرة خلال شهر فيفري 1880م، ومن هناك تقرر التوجه نحو ورقلة أين شكلت من أبناء الشعامبة حرسا لها، ومن هناك توجهت نحو تيمسنين يوم 21 ماي دخلت في محادثات مع بعض زعماء التوارق الذين كانوا بالمنطقة وعلى رأسهم أهيتاقل أمنيكول[4] ثم اتجهت نحو منطقة الزاب وفي 26 ماي غادرت بلدة العاطف وسلكت واد ميزاب باتجاه بني يزقن بغرداية أين استقبلهم رئيسها الشيخ الحاج يوسف.

وفي يوم 28 ماي واصلت سيرها نحو بلدة بريان لتصل الاغواط يوم 3 جوان 1880م في العاشرة صباحا[5] فاستقبلها القائد الفرنسي "بولا". ومن هناك رجع "فلاترس" إلى باريس ليلتقي المزيد من الدعم المادي والمعنوي على مجهوداته الجبارة في اختراق الصحراء؛ وخاصة من أصحاب المصالح الاقتصادية كمصلحة الطريق الصحراوي، ونظرا لهذا الدعم عاد من جديد إلى الجزائر وكله حيوية ليواصل

---

1 – إبراهيم، مياسي، المرجع السابق ص 61.

2 – شغل منصب الحاكم العام في منطقة الاغواط، وهذا ما ساعده على جمع معطيات هائلة من المعلومات عن الصحراء الجزائرية، كان طموحا في الوصول إلى مدينة تمبكتو وإلى بلاد التوارق.

3 – ضمت كل من فلاترس عقيد المشاة والقائد الاعلى لمنطقة الاغواط سابقا، وموسون نقيب أركان الحرب وبرابجة مهندس الجسور والطرقات وروش مهندس في المناجم وبرنار نقيب في سلاح المدفعية والطبيب غيارد. ولوشاتولييه وبروسلار ملازمين في المشاة وكابليو ورابودان مسيري الجسور والطرقات.

4 – من أهم زعماء التوارق المتواجدين في الجنوب الغربي لجبال الهقار على غرار ايخنوخن الذي يشرف على التوارق المتواجدين في القسم الشرقي من الهقار، وفي منطقة الغابات.

5 – إبراهيم، مياسي، المرجع السابق، ص 62.

نشاطه الاستكشافي في الصحراء. ليبدأ رحلته الثانية بالاتّجاه نحو بلاد التوارق ووضع نصب عينيه تحقيق ما كلف به من طرف المصلحة السابقة؛ وهو دراسة إمكانية مد خط حديدي عبر الصحراء الجزائرية، وعليه فإن هذه الرحلة ستكون ذو طبيعة علمية واقتصادية وعسكرية.

وبعد أن أخذ كل احتياطاته شكّل قافلة كبيرة جدا[1] انطلقت من ورقلة يوم 8 ديسمبر 1880م باتجاه السودان إلى أن استقرت بايزامن ثم غادرها يوم 30 جانفي 1881م، وفي طريقه إلى بلاد التوارق كان قد بعث برسالة إلى أمينكول على أمل اللقاء به عند بحيرة منقوع – تقع في منتصف الطريق إلى غات–، وكتب إليه بعدة رسائل يستجديه فيها؛ إلى أن رده في البداية كان سلبيا، ثم سرعان ما عززها برسالة أخرى وعده فيها بالاستقبال الحسن.

وللعلم فإن القنصل الفرنسي العامل بطرابلس آنذاك كان قد حذره من مغبة السقوط في فخ التوارق الا أنه لم يعر لهذا التهديد أدنى اهتمام[2]، ثم بدأت القافلة في السير باتجاه سبخة أمادقور المدخل الرئيسي لبلاد السودان، وحدا بها المسير في الوصول إلى واد تاجيرت الذي استقرت به.

ومن مظاهر استدراج التوارق لهذه القافلة هو إرسال أمينكول بمجموعة من رجاله نحوها ليرشدوها في سهول أمادرور، وما زاد الامور تعقيدا هو وجود دليل البعثة، و لم يهتد "فلاترز" إلى الصحيح منهم. وانطلاقا من واد تاجيرت اتجهت في أول فيفري منحدرة معه نحو الجنوب الغربي فوجدت نفسها ضمن فج جبلي ضيق يؤدي إلى سهل شاسع مغطى بحجارة سوداء؛ هذا المظهر الجديد والمخيف دفع بالدليل على طلب التراجع بحجة عدم معرفته لهذه المنطقة[3]. فسلكت مسارا آخر

---

1 – ضمت، 11 فرنسيا و47 جنديا من الاهالي و32 سائق بعير و8 رجال من الشعانبة للاستدلال عن الطريق، وأربع شخصيات من التوارق وعدد هائل من الجمال لحمل الامتعة.

2 – إسماعيل، العربي، الصحراء الافريقية الكبرى وشواطئها، المرجع السابق، ص 104.

3 – إبراهيم، مياسي، المرجع السابق، ص 64.

وفي ظروف قاسية جدا –تعب ونفاذ ماء- واصلت سيرها إلى أن عثرت على بئر ماء فنصبو حوله مخيمهم، وفي اليوم التاسع من شهر فيفري تحركت سالكة الهضاب والتلال الصحراوية وبدأت شيئا فشيئا تحتك بسكان التوارق الذين أظهروا لها نوعًا من التذمر والاستياء، لكنها لم تعبأ بهم إلى أن حطت رحالها يوم 16 فيفري عند سهل رملي شاسع ونصبت حوله مخيمها.

ومن هناك أخذ "فلاترز" يبحث هو وبعض رفاقه عن ما يعرف ببئر الغرامة؛ أين كان ينتظرهم كمينا من التوارق المدججين بمختلف الاسلحة.

ورغم إشهاره للسلاح في وجههم فإنهم لم يعبأوا بهم وانقضوا عليهم، ثم على بقية المخيم الذي لم ينج منه الا القليل الذين تراجعوا باتجاه ورقلة –تبعد بمسافة أربعون يوما من السير-، وتمكن عدد قليل جدا من الوصول إلى ورقلة يوم 28 مارس وهناك تحدثوا عن ما لاقوه من طرف التوارق وعن مصير زملائهم[1]. ويضاف إلى هذه البعثة بعثة "فلامون"[2] التي انطلقت في خريف 1899م تحت إشراف وزارة المعارف العمومية والمستعمرات وبتدعيم من الحكومة الفرنسية التي طلبت من رئيس المكتب العربي بورقلة أن يوفر لها الدعم والمساعدة، ومن النقيب "جرمان" بالتحرك مع فرقة من الصبايحية لحمايتها.

انطلقت يوم 28 نوفمبر 1899م باتجاه عين صالح وفي يوم 9 ديسمبر وصلت إلى حاسي إينغل ثم إلى حاسي السوقي يوم 15 نوفمبر لتشرف بعدها على رق أجمار وواد مسين، وفي يوم 26 ديسمبر وصلت واحات الزوا ثم واحات إيقوسين. وفي أثناء سيرها كانت قد تعرضت إلى هجوم من طرف الحاج المهدي باجودا وبقوة 1200 رجلا، هجوم قتل على إثره وأمام هذا الانتصار على هذه القوة

---

1 – آندري، نوشي وآخرون، الجزائر بين الماضي والحاضر، ترجمة اسطمبولي رابح ومنصف عاشور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984، ص 391 ويراجع أيضا الصحراء الافريقية الكبرى وشواطئها ص 157.

2 – ضمت 90 مهريا و15 فرسا وأحد مقدمي الزاوية القادرية الذي دعمها بأربعين مهريا آخر.

عززت مواقعها بالسير نحو القصر الكبير ومنه بالتوجه نحو عين صالح؛ وبالقرب من قصر الدقامشة تجددت المعركة مع السكان فما كان من رجالها الا الاحتماء بحصون القصر وحدائقه، ونظرا لذلك قرر الوالي العام الفرنسي تدعيمها بقوات إضافية من القليعة تقدر بحوالي 150 جنديا و150 رجلا من القوم، وهو ما رجح كفة المعركة لصالح الفرنسيين الذين تمكنوا من احتلال عين صالح[1].

إن هؤلاء المستكشفين قدموا لنا رصيدا هائلا من المعلومات عن الصحراء الجزائرية والافريقية الكبرى، وهو ما أدى إلى أمرين رئيسيين:

ازدياد رغبة الحكومة الفرنسية في احتلال المناطق الصحراوية الغنية بثرواتها الطبيعية الظاهرية والباطنية، وتسهيل مهمة التوسع العسكري من خلال إتباع طرق ووسائل معينة لنجاح العملية التوسعية؛ ومن أهم المؤلفات والدراسات التي ساعدت عملية التوسع أذكر ما يلي:

الدراسة التي قدمها الضابط "أوجيرا" بجوانبها العلمية والفلكية والطبوغرافية لوحات الساورة وتوات[2]،وموريطانيا، وكذلك دراسة "باجول" للتكوين الجغرافي والطبوغرافي لبعض المناطق الصحراوية، وللآبار المائية الصحراوية وكذلك دراسة "موريس" لمظاهر الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والدينية لسكان التوارق بالهقار واستعرض عاداتهم وتقاليدهم وبعض الجوانب من تاريخهم السياسي والحضاري[3]. هذا فضلا عن العديد من الدراسات الاخرى كدراسة "بيسي" لمنطقة تيدكيلت من الناحية الجغرافية والبشرية وخاصة دراسته للسلالات وعادات وتقاليد السكان ولمصادر ثروتهم؛ كما تحدث عن مناطق الموذير وأهنيت والهقار

1 – إبراهيم مياسي، المرجع السابق، ص ص 109، 110.
2 – توات عبارة عن إقليم جغرافي شاسع يقع في جنوب غرب الصحراء الجزائرية، وهو يشتمل على عدد هائل من الواحات والقصور تزيد عن الثلاثمائة وخمسين واحة. ومصدر كلمة توات مختلف فيه، فيوردها البعض بمعنى وجع الرجل وهذا على ما جاء في كتاب السعدي تاريخ السودان، في حين يوردها البعض الاخر بمعنى أنها أحد البطون المنحدرة من قبيلة الملثمين سكان الصحراء... الخ. وللمزيد أكثر يراجع، إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، للباحث فرج محمود فرج، التي قدمها كأطروحة لنيل دكتوراه الدور الثالث في التاريخ، ص ص 1-4.
3 – يحي، بوعزيز، المرجع السابق، ص 73.

وأدرار وتانزورفت والشيء نفسه قام به الضابط "هنري بيسويل" الذي درس عادات التوارق وأسلحتهم وأساليب حروبهم كما درس منطقة تادميت وتيدكيلت وتوات وقورارة، ودعا إلى ضرورة تركيز الاحتلال الفرنسي على هذه المناطق لأهميتها في ربط الجزائر بتشاد[1].

كما تحدث "جاك بوركار" عن النتائج العلمية والجيولوجية والعسكرية التي توصلت إليها بعثة "أولفيسي" جنوب تونس وسوف وتقرت وورقلة وواد ميه وتادميت وتامنراست وأهنيت وأولف وفورارة وواد الناموس وفيقيق. كما درس "كانسيل" جغرافية عرق إيقدي وواد الساورة وتعرض "كابوري" لأهمية أبار واد ريغ من الناحية السياسية والاقتصادية وركز "كاركاسون" على دراسة عادات وتقاليد التوارق[2]. وكذلك دراسة "براكس" سنة 1851م التي تحدث فيها عن العلاقات مع مكة والسودان، كما جمع وقدم "هنري دوفيري"وثائق ومعلومات هامة عن التوارق نشرت في كتاب له سنة 1864م بعنوان: التوارق في الشمال[3].

كما أن الاهتمام الفرنسي بالصحراء الجزائرية يعود إلى ما دونه الضابط الفرنسي "لابي" الذي تمكن من وضع خريطة عامة للجزائر وضح فيها تضاريس المنطقة الجنوبية، كما أن قادة الاحتلال الفرنسي كانوا قد استخبروا العديد من أعيان المنطقة الصحراوية، ومن ذلك مثلا ما حدث مع أحمد المصطفى ولد طوير الجنة الذي مر عبر الجزائر أثناء عودته من الحج سنة 1832م قاصدا بلده. كما استفادوا من دراسة "لافازاك" التي أنجزها في سنة 1836م والمتمثلة في خريطة عن الصحراء الجزائرية ضمنها أهم المعالم الرئيسية كطرق المواصلات مثلا، كما ألف الضابط " دوماس" وبتشجيع من الماريشال "بيجو" في سنة 1845م كتابا بعنوان: الصحراء الجزائرية؛ وهي دراسة هامة تتحدث بالخصوص عن جغرافية وتاريخية الجنوب القسنطيني[4].

---

1 – المرجع نفسه ص 74.
2 – المرجع نفسه ص 74.
3 – أندري، نوشي وآخرون، المرجع السابق ص 389.
4 – احميدة، عميراوي، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، مطبوعات جامعية بمنتوري، قسنطينة، 1999.

2 – مشروع السكة الحديدية: يعود ظهور هذه المشاريع إلى تلك الافكار والمبادئ التي أفرزتها الثورة الفرنسية ومن بين هذه الافكار الفكر السانسموني الذي يعود في نشأته إلى سان سيمون[1] ولقد كان للسانسيمونيين مشاريع كثيرة منها:

مشروع إنشاء البحيرة الكبرى في العرق الشرقي الكبير من الصحراء الكبرى، وهي تؤمن بوحدة العالم وبوحدة المعرفة الانسانية. كما دعت إلى حرية المعتقد من دون إكراه بهدف إحداث تقارب وتوحيد بين مختلف الاجناس في العالم، ولتحقيق هذا الهدف في نظرهم لابد من توحيد العالم وربطه ببعضه البعض بداية بربط القارات، ولهذا جاءت مشاريع عدة منها: مشروع قناة السويس[2] وقناة بنما بأمريكا الوسطى، وتعبيد طرق للمواصلات ومد خطوط للسكة الحديدية؛ والقيام بحركة استعمارية استيطانية عالمية لتحرير الشعوب وتطويرها.[3]

كما أن الحملة الفرنسية على الجزائر كانت قد ضمت العديد من الضباط السانسيمونين، وحتى الذين تم تعيينهم في مناصب إدارية وعسكرية فيما بعد كان بعضهم ينتمي إلى هذا التيار الفكري، ومن بينهم "لامورسيير" قائد منطقة الغرب الجزائري، والدوق "دومال" الذي تمكن من القضاء على زمالة الامير عبد القادر في سنة 1843م، ومن الواضح أن الاستعمار سواء كان انجليزيا أو فرنسيا فإن هؤلاء كان لهم دورا كبيرا في تنشيطه، وهم الذين سنراهم فيما بعد يحاولون إنشاء شبكة من الخطوط

---

1 – كلود دو سان سيمون (1760-1825)، فيلسوف اجتماعي واقتصادي فرنسي، ولد في باريس وقطع صلته بأسرته النبيلة وتنازل عن لقبه وأنفق ثروته على منتدى للعلماء، نادى بدين جديد هو دين العلم والتفوق الصناعي، وله عدة مبادئ اشتراكية وعلمية وصناعية تقنية، ومن أشهر مؤلفاته: رسائل مقيم في جنيف إلى معاصريه، وعقيدة الصناعيين، والمسيحية الجديدة، ولقد استهوت مبادئه جماعة من الشباب المتحمسين فأنشأوا حركة اجتماعية تأثر بها الفكر الاشتراكي فيما بعد. يراجع المنجد في اللغة والاعلام ص 292.

2 – أشرف على هذا المشروع الفرنسي دو ليسبس، وبدأت أشغال الحفر به منذ شهر أفريل 1859 واستمرت إلى غاية شهر نوفمبر 1869 حيث تم تدشينه، ولقد ساهم هذا المشروع في تقليص المسافة الفاصلة بين مرسيليا ومدينة بومباي الهندية عبر راس الرجاء الصالح من 16600كم إلى حوالي 7300كم عبر هذه القناة يراجع: موسوعة بهجة المعرفة، المجموعة الثانية، المجلد الثالث، ص-ص 100-101.

3 – أحميدة عميراوي، بحوث تاريخية، دار الهدى، قسنطينة، الجزائر، 2001 ص-ص100 101.

الحديدية في جنوب إفريقيا، وفي الهند مثلا على يد الحاكم الاتوقراطي "كرزون"[1] مع مطلع القرن العشرين، بالاضافة إلى العديد من المشاريع التي لا يسعنا الحديث عنها؛ وأكتفي هنا بالاشارة إلى مشروع السكة الحديدية في الصحراء الجزائرية.

لاشك أن هناك العديد من الاسباب التي دفعت هؤلاء إلى تبني هذا المشروع، أسباب وأهداف متعددة يمكن حصرها في النقاط الاتية:

1 - تسهيل عملية تنقل القوافل العسكرية، وللتمكن من القضاء على بؤر التوتر للمقاومة الجزائرية في الجنوب.

2 - ربط المراكز الاستعمارية ببعضها البعض على مستوى محلي ودولي ومستعمراتها الافريقية على مستوى قاري.

3 - تنشيط الاقتصاد الفرنسي والعمل على ازدهاره وخاصة قطاع الخدمات، وذلك من خلال استغلال الثروات الطبيعية الظاهرية والباطنية التي تزخر بها الصحراء الجزائرية. فإقليم قورارة وتوات غني بالمعادن كالفحم الحجري حسب الدراسة التي قدمها " دفلامون" وهضبة تادميت الغنية بمركبات الكبريت حسب ما ذهب إليه "رولان"[2] بالاضافة إلى العديد من المعادن الاخرى كالرصاص والزنك والنحاس والانتيموان[3].

---

1 – تم تنصيبه نائبا للملك في الهند في الفترة ما بين 1898-1905 ، قصد وضع حد للانتفاضات الهندية التي أعقبت قمع الثورة الهندية في سنة 1858–1860، الا أنه وللأسف الشديد نجده قد قام بانتشاء العديد من المشاريع التي تنم عن تمسك الاستعمار البريطاني بالهند، وهو ما أثار السخط والتذمر في أوساط الهنود. ومن بين هذه المشاريع مد خطوط للسكة الحديدية في أرجاء الهند، وإنشاء خطوط للبرق وطرق للمواصلات قصد ربطها ببعضها البعض وليسهل التحكم في الامارات الهندية التي كانت آنذاك تقدر بحوالي 600 إمارة. يراجع ، بهجة المعرفة ص 273.

2 – إبراهيم، مياسي، توسع الاستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي الجزائري، المرجع السابق، ص 85.

3 – معدن يستخدم غالبا في أدوات الزينة وهو المعروف عند العامة من الناس بالكحل.

4 – الحد من تجارة القوافل المغربية والطرابلسية والمالية العابرة للصحراء الافريقية والمحملة بكل أنواع الزينة كالعطور والروائح والمنسوجات الصحراوية وريش النعام وبعض المعادن الثمينة كالذهب والفضة والنحاس، ومنافستها في الوصول إلى مصادر هذه الثروة واستغلالها واحتكارها لصالح الشعوب الاوروبية. وقبل مد خطوط السكة الحديدية ستقوم القوات الفرنسية بالترصد لهذه القوافل لابتزازها وعرقلتها عن ممارسة نشاطها.

وللعلم فإن الصحراء الافريقية كانت غنية بطرقها وأسواقها التجارية ومن بين هذه الطرق: طرق باتجاه مدينة تمبكتو مثل طريق من مراكش، وطريق من فاس ومكناس، وطريق من وهران وأرزيو، وطريق من مدينة الجزائر، وطرق أخرى غير جزائرية باتجاه نفس المدينة مثل طريق طرابلس[1].

وهي الطرق التي كشف عنها الرحالة والمستكشفون خلال القرنين 19م و20م الذين سبق الاشارة إلى البعض منهم.

وفي الحقيقة فإن تخطيط مشاريع السكة الحديدية يعود إلى النصف الثاني من القرن 19م وبإيعاز من "كاباني" الذي اقترح مد خط حديدي يمتد من الجزائر نحو بوسعادة وورقلة على أن يتفرع إلى فرعين رئيسيين: الفرع الاول باتجاه تونس وطرابلس، والفرع الثاني باتجاه عين صالح والهقار، وعلى أن تبدأ الاشغال بهما مع مطلع سنة 1853م. الا أن الظروف الدولية التي عرفتها فرنسا آنذاك والمتمثلة في مشاركتها في حروب القرم[2]. إلى جانب الدولة العثمانية حالت دون تنفيذه، ومع مطلع سنة 1856م برز أحد المهندسين الطموحين إلى إنشاء هذه المشاريع وهو المهندس "أدولف دو بو نشيل" الذي كان متأثرا إلى حد بعيد بمشاريع السكة

1 – يحي، بوعزيز، مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، المرجع السابق ص–ص 75–77

2 – القرم شبه جزيرة تقع في شمال البحر الاسود، كانت مسرحا لأحداث هذه الحرب فيما بين 1854–1856م، حرب نشبت بين روسيا من جهة والدولة العثمانية فرنسا وانجلترا من جهة ثانية، بسبب التنافس على مناطق النفوذ في المنطقة، انتهت بهزيمة روسيا وتوقيعها على معاهدة باريس سنة 1856م، يراجع، المنجد في اللغة والإعلام ص: 216.

الحديدية في الولايات المتحدة الامريكية، وبمشاريع التوسع الانجليزي في قارة إفريقيا. فرأى ضرورة ربط المستعمرات الفرنسية ببعضها البعض بشبكة من الخطوط الحديدية، وكان أبرز مد خط حديدي يمتد من التراسنفال إلى أقصى جنوب القارة الافريقية حيث رأس الرجاء الصالح.

وفي سنة 1875م قدم مشروعا لخط حديدي يمتد من الجزائر إلى توات وايغارغار وتومبكتو، وتم تكليفه رسميا سنة 1878م بوضع الحدود لهذا المشروع غير أنه لم يتجاوز منطقة الاغواط، ولأهمية المشروع اهتمت بدراسته الغرفة التجارية بمرسيليا، حيث أن وزير الاشغال العمومية "فريستيان" قد كان مرتبطا برؤوس الاموال بمرسيليا، الشيء الذي شجعه في سنة 1879 م على تأسيس اللجنة الحديدية الصحراوية ومنح ثلاثة مليون فرنك ذهبي لثلاثة بعثات علمية لدراسته، وهي على النحو الاتي:

- البعثة الاولى يترأسها "بويان" ومهمتها رسم السكة بوهران نحو توات، وتوقفت أشغالها في موغرار بجبال القصور، وأسند إلى "كاميل سابطي" مهمة جمع المعلومات لبقية المشروع.

- البعثة الثانية أشرف عليها "شوازي" وقد قام أحد أعضائها وهو المهندس "جورج رولان" بدراسة جيولوجية شاملة لمنطقة واد ريغ، ورأت هذه البعثة ضرورة اختيار الخط الرابط بين بسكرة وورقلة والغوليا لفائدته التجارية.

البعثة الثالثة: كلف بها الكولونيل "فلاترس" ويمتد طموحها إلى ما وراء الحدود التي أدركها الاحتلال الفرنسي، ولتحقيق هذا الغرض فإن السكة الحديدية في الصحراء تتطلب توسيع التوغل العسكري نحو الجنوب بشتى الطرق والوسائل الممكنة[1]. ويعود الفضل في هذه المجهودات إلى المهندس "ديبو نشيل" الذي تمكن

---

1 – آندري نوشي وآخرون، المرجع السابق، ص: 390.

بفضل مكانته من إقناع البرلمان الفرنسي بالمصادقة على مشروع إنشاء ثلاثة خطوط رئيسية لهذا المشروع[1].

الا أن القضاء على حملة "فلاترس" كادت تقضي على طموح هؤلاء الاستعماريين، الشيء الذي شجع الكاردينال "لافيجري"[2] بعد القضاء على بعثة الاباء البيض على تدعيم ومناصرة إنشاء مشروع السكة الحديدية، ولقد تمكن إلى حد ما من إقناع رجال الاعمال الاوروبيين والفرنسيين المترددين حول نجاح هذا المشروع، والارباح التي يحققونها منه. كالتمكن من تسويق منتجاتهم على الشعوب الافريقية، وجلب المواد الاولية لإدارة المزيد من الاعمال في المصانع الاوروبية وأن هذا لا يتم الا بواسطة القاطرة الحديدية التي ستعبر الصحراء الافريقية نحو أوروبا. وكان دائما يستشهد لهم بما أنجزته الولايات المتحدة الامريكية من مشاريع السكة الحديدية عبر أراضيها وبهذا الخصوص يقول: أولم ترو كيف أن السكة الحديدية قد ربطت في عام 1859 م رغم الصحاري والجبال بين ساحلي الاطلنطي والهادي[3].

والملاحظ هنا حول هذا الترغيب فإنه كان قد حصل في بلد آمن ومستقر عكس الجزائر التي أنهكها المستعمر الفرنسي، وحتى الشعب الجزائري فهو الاخر لن يترك هذه المشاريع تمر بسلام، لأنه يدرك مدى خطورتها على مستقبله، الامر الذي سيدفع بالمستثمرين الاوروبيين إلى بقائهم معلقين بين الحيرة والتردد حول نجاعة هذه المشاريع. وإذا كان القضاء على بعثة "فلاترس" قد عطل هذه المشاريع فإنها

---

1 – محمد الطاهر، عدواني: (المشاريع الاستعمارية في الصحراء والمقاومة الوطنية – حملة فلاترز 1880)، الباحث، تاريخية دورية، العدد الرابع، المديرية المركزية للمحافظة السياسية للجيش الوطني الشعبي، المطبعة المركزية للجيش، نوفمبر، الجزائر، 1986، ص: 75.

2 – لافيجري شارل، رجل دين فرنسي برتبة كاردينال ورئيس أساقفة الجزائر، ويعود له السبق الاستعماري في تأسيس جمعية الاباء البيض في سنة 1868 موالتي استطاعت أن تؤسس العديد من المعاهد والمراكز العلمية التنصيرية في عدة أرجاء مختلفة من العالم، ولقد لعب دور كبير في تنصير العديد من الاطفال والشيوخ والنساء الجزائريين عقب المجاعة التي حصلت في الجزائر في فترة الستينيات. يراجع، المنجد في اللغة والاعلام، ص: 489.

3 – المرجع نفسه، ص: 75.

فتحت الباب للمزيد من التصريحات والانتقادات الموجهة لأصحاب هذه المشاريع، وبهذا الخصوص يقول "جورج غيرستر": بأنه لا ريب أن الجزء الاكبر من قضية سكة الحديد العابرة للصحراء تبدو كمهزلة أو أضحوكة، فقد اجتمعت فيها عناصر متعددة شملت الغموض والمثالية والحمق والوطنية وجنون العظمة لتساهم كلها في تكوين الرغبة الملحة والتي هي ولاشك ساذجة بعض الشيء في رؤية قاطرة البخار تغدو في السير عبر الصحراء، كما أن الحماس التبشيري بدوره قد لعب دورا قويا في هذا الموضوع.

ورغم هذه التصريحات المتهكمة فإنها لم تثن كثيرا من عزيمة الفضوليين على أساس أن يكون لهم السبق في الرظفر بتحقيق طموحات الاستعماريين الاوروبيين، ولذلك سنجد العديد من مشاريع السكة الحديدية قد ظهرت عقب ذلك ومن بينها أذكر:

– مشروع المهندس "بويان" القاضي بمد ثلاثة خطوط حديدية الاول من تيارت إلى المدية والثاني من سعيدة إلى رأس الماء والمشرية، والثالث من المشرية إلى المقرار والوتيد.

– مشروع "دوريان" القاضي بمد خط حديدي من وهران نحو توات عبر تلمسان وسبدو والعريشة وعين بن خليل وعين سفيسة ونخلة إبراهيم.

– مشروع "كولونيو" القاضي بمد خط حديدي من مستغانم نحو تيارت وعين صالح والسرسو والمنيعة والقليعة وتيمون.

– مشروع الثلاثي "دوفيري" و"بروسلار" و"وماج" القاضي بإجراء دراسة خاصة تخدم مشاريع الاتصالات بين الجزائر والسنغال بواسطة القطارات الحديدية[1]... إلخ

---

1 – يحي، بوعزيز، مع تاريخ الجزائر في الملتقيات اللاوطنية والدولية، المرجع السابق، ص : 79 – 80

أما على مستوى الحكومة الفرنسية فإنها حاولت أن تجد وسيلة أخرى تمكنها من الاستغلال الامثل للثروات الصحراوية، إلى أن يحين الوقت لإنجاح مشاريع السكة الحديدية، وهنا يلجأ رجال الاعمال والمستعمرين إلى إتباع وسيلة المضاربات الفلاحية والسمسرة ومصادرة الاراضي الفلاحية الخصبة كالواحات ومناطق تواجد المياه. والعمل على إنشاء شركات تجارية رأسمالية بتدعيم من السانسيمونيين، ومن بينها شركة واد ريغ التي اشترت بالمزاد العلني سنة 1878م ثلاثة واحات رسمية، وشركة باتنة التي كانت هي الاخرى قد تحصلت على ثلاثة واحات رسميا منها واحة أورير سنة 1882م[1].

إنّ السنوات المتبقية من القرن التاسع عشر قد كرست صراعا محتدما بين كل من فرنسا والقوى الاوروبية الناشئة ألمانيا وإيطاليا حول مناطق النفوذ في القارة الافريقية، صراع كاد أن يؤدي إلى قيام حرب بين الطرفين لولا سعيهم إلى احتوائه عن طريق عقدهم لمؤتمر برلين الثاني في سنة 1884م[2]. ولكن بوادر الصراع ظلت محتدمة بين فرنسا وانجلترا وكادت حادثة فاشودة في سنة 1898م أن تؤدي إلى التصادم العسكري بينهما لولا سعيها إلى حل المشكلة بالطرق الدبلوماسية، وهي أن تتوقف فرنسا عن توسعها على حساب مناطق النفوذ البريطانية في السودان. وبهذا الخصوص كان قد صرح "جول كومبون" حاثا فرنسا على التمسك بالمستعمرة الجزائرية وخاصة الصحراء الجزائرية: ستؤول الصحراء إلى غلبتنا ولن نركن ولو بالقوة إلى سلطة سوى سلطتنا في منطقة توات وعين صالح وغيرهما من

1 – آندري نوشي وآخرون، المرجع السابق، ص 391.

2 – لقد تم في هذا المؤتمر وضع القواعد الاساسية لمناطق النفوذ بين الدول الاوروبية في القارة الافريقية، كحركة الملاحة وحريتها في نهري الكونغو والنيجر، وتقاسم الثروات الاقتصادية، وعدم التدخل في مستعمرات بعضهم البعض، حياد إقليم الكونغو وحرية التجارة فيه، إلغاء تجارة الرقيق والقائمين عليها، ولكن رغم ذلك فإن المصالح الإوروبية ستتعارض بحدة مع مطلع القرن العشرين وتؤدي فعلا إلى قيام حرب عالمية في سنة ستتعارض بحدة مع مطلع القرن العشرين وتؤدي فعلا إلى قيام حرب عالمية في سنة 1914م، التاريخ المعاصر أوروبا من الثورة الفرنسية إلى الحرب العالمية الثانية، ص: 317 – 318.

المناطق، فليكن الاهالي على اقتناع بأن احتلال هذه المناطق الفعلي[1] ليس الا مسألة من المسائل الظرفية عندنا... وسيتحقق هذا الاحتلال دون أن نأخذ بعين الاعتبار تلك الاحتجاجات التي قد يدفع إليها عملنا[2].

وهذا الاخير كان شغوفا بإنجاح مشروع السكة الحديدية في الجزائر ولذلك سعى إلى الحيلولة دون غض الحكومة الفرنسية النظر عن هذا المشروع والانشغال بالقضايا الدولية خارج الجزائر، ولذلك سعى إلى التعاون مع مختلف الانصار الموالين له في طموحاته، كزعيم مدينة قسنطينة المهندس "جورج رولان" ومساعده "فوك فرولان" الذي حاول أن يُضفي نوعًا من الاطمئنان على نجاح هذا المشروع. ولذلك جاء في أحد تصريحاته: أن السكة الحديدية بصدد الدخول في المجال الفعلي. ويحاول مناصر آخر له أن يوضح للمستثمرين الفوائد التي سيجنونها من هذا المشروع وهو "ساباتاي" منطقة توات بها ثروة كبرى وما يمكن أن نتحصل عليه هو أكثر من ذلك فهناك حوالي عشرة ملايين نخلة وما يمكن أن يوفر حوالي 200000 طنا من البضاعة سنويا وأن منطقة توات وحدها تساوي السكة الحديدية[3].

ولقد كان للجنة إفريقيا دور كبير في مناصرة هذه المشاريع وكان مطلبها دائما كما يحدده "ساباتي" هو إعداد برنامج عمل وميزانية خاصة للاحتلال السياسي والعسكري للصحراء ويشاطره الرأي "فول" الذي نادى بضرورة وضع برنامج عمل للتوغل في احتلال إفريقيا عبر ثلاثة قواعد كبرى للمناورات وهي الجزائر والسنغال والكونغو ويلخص هذه المشاريع كلها بقوله: إن فرنسا لن تشرع في بناء السكة الحديدية في الصحراء الا إذا تيقنت بهذا المشروع أنها ستنجح في فرض

---

1 – آندري نوشي وآخرون، المرجع السابق، ص: 392.
2 – المرجع نفسه، ص: 393.
3 – المرجع نفسه، ص: 393.

هيمنتها التجارية على البلدان الخصبة والثرية حتى تتمكن من توفير مورد جديد للصادرات الفرنسية[1].

وفي سنة 1899م طرح رجل الاقتصاد "بيروا بولي" مشروع القيام بإحياء الارض الفلاحية حول السكك الحديدية عبر الصحراء، وخاصة الشط الشرقي والشط الغربي، ولترضية المضاربين في كل من وهران وقسنطينة. وبلغت تكاليف هذا المشروع ما بين 100 و200 مليون فرنك ذهبي، وكانت رؤية هذا الرجل التي عرضها في سنة 1904م تشمل استغلال حركة البضائع السودانية واستخراج الخيرات المعدنية من الصحراء الجزائرية[2] ولكن لم يتحقق هذا المشروع الفلاحي بين السكة الحديدية في الجهتين المذكورتين لأسباب عديدة وهو لم يتجاوز في الفترة ما قبل الحرب العلمية الثانية خطي منطقة تقرت في الجنوب الشرقي والقنادسة ببشار في الجنوب الغربي تم إنشاؤهما مع مطلع القرن العشرين.

ولكن رغم هذه الاخفاقات تزاديت جهود العديد من الضباط الفرنسيين والاوربيين[3] طيلة النصف الاول من القرن العشرين لمحاولة إنجاح هذه المشاريع، فدرسوا تكاليفها ومزاياها على مختلف الاصعدة وأثرها على الوجود الفرنسي بالجزائر، ولقد أثمرت هذه الابحاث خلال النصف الاول من القرن العشرين بظهور ثلاثة خطوط حديدية رئيسية هي:

1 – الخط الاول يمتد من مدينة قسنطينة إلى ورقلة عبر بسكرة وتوقرت.

2 – الخط الثاني يمتد من البليدة إلى الجلفة عبر المدية.

---

1 – المرجع نفسه، ص: 394.

2 – المرجع نفسه، ص: 400.

3 – ومن بينهم "نو" و"فينكبير" والمهندس "سولير" و"فوانو" و"هنري لوران" و"رومانس" والمهندس "شويش" و"ألبير سوزيد" و"كاميل ساباطي" و"فودفري" و"ألفريد فينار" و"روبير رابنو". يراجع يحي بوعزيز، مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، ص: 80.

الخط الثالث: يمتد من المحمدية إلى بني عباس عبر سعيدة وبشار وللعلم فإنه مع مطلع القرن العشرين قام كل من وزير الاشغال العمومية "قوتيه" ووزير الداخلية "اتيان" والوالي العام"بونار" خلال شهر أكتوبر 1905م بزيارة إلى بشار لتدشين الخط الحديدي الجديد الرابط بين مدينة بني ونيف وبشار على مسافة 112 كم.

ومما تجدر الاشارة إليه في الاخير حول هذا المشروع هو أنه عرف الكثير من العراقيل والصعوبات التي حالت دون تنفيذه كما تم التخطيط له، عكس بقية مشاريع السكة الحديدية التي أنجزتها انجلترا في كل من الهند وجنوب إفريقيا، ويمكن حصر هذه الصعوبات في النقاط الاتية:

1 – طبيعة الصحراء الجزائرية التي تتميز بخصائص جعلها تنفرد عن بقية الصحاري في العالم، وذلك من خلال توفرها على العديد من المتناقضات الطبيعية غير المستقرة والتي تحول دون رسم خطوط سكة حديدية عدا بعض المناطق القليلة منها.

2 – ونظرا لهذه الصعوبات الطبيعية فإن مواجهتها كانت من الصعوبة بمكان، وحتى محاولات الاختراق فإنها كلفت الخزينة الفرنسية مئات الملايين من الفرنكات، وهو ما ولد ردود فعل رافضة لهذه الخسائر.

3 – صعوبة التوفيق بين تكاليف الانجاز والفوائد التي تتحصل عليها من جراء ذلك، لأنه تم التوصل ومع مرور الزمن الا أنه لا يمكن تحقيق هذا التقارب في العديد من المشاريع الاستعمارية التي تم إنجازها في العديد من المناطق في العالم.

4 – الظروف الدولية التي كانت تمر بها فرنسا وهي تلك المنافسة الانجليزية لها في القارة الافريقية والاسيوية، وكذلك خسرانها للعديد من المستعمرات في أمريكا الشمالية الشيء الذي جعلها عاجزة عن التوفيق بين طموحاتها التوسعية في المناطق الصعبة والتي ترهق كاهل الخزينة العمومية ومقابل ذلك هو وجود مقاومة وطنية

جزائرية للمشاريع التوسعية الاستعمارية، الشيء الذي حال دون اقتناعها بجدية استقرارها في الجنوب الجزائري.

5 — وأمام هذه المعطيات فإن السلطات الاستعمارية زاوجت بين شيئين اثنين هما محاولة مد هذه الخطوط الحديدية والتوسع في الصحراء بالقوة العسكرية، قوة ساهمت إلى حد ما في تحجيم المقاومة الجزائرية، التي أصبحت مخترقة من طرف الفرنسيين، وما المشروع الثالث الذي أرادت من خلاله إبطال فريضة الجهاد الا دليلا على ذلك.

6 — تخوف رجال الاعمال والمستثمرين من المغامرة بأموالهم في سبيل إنجاز هذه المشاريع رغم وجود العديد من التحفيزات والاغراءات، وهو ما جعلهم يبحثون عن بديل آخر للاستثمار في الجزائر، فكانت منطقة الشمال المجال الخصب لتحقيق طموحاتهم.

وما يمكن قوله في الاخير هو الاقرار بأن السكة الحديدية قد أعطت دفعا قويا للتوسع الفرنسي في الجنوب الجزائري تحت العديد من الحجج والذرائع هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الخطوط التي تم إنجازها قد ساهمت إلى حد بعيد في نهب واستغلال الثروات الطبيعية في الصحراء الجزائرية، والتي تم التوصل إلى اكتشافها آنذاك. ثروات ساهمت وبشكل قوي في تنمية الاقتصاد الفرنسي وازدهاره على حساب الشعب الجزائري الذي حرم من استغلاله لصالحه.

3 – مشروع إبطال فريضة الجهاد:

إن السلطات الفرنسية قد أدركت أن الدين الاسلامي هو العامل القوي الذي جعل الشعب الجزائري يدافع عن أرضه ومقدساته تحت لواء الجهاد، وهذا ما اعترف به العديد من المنظرين للفكر الاستعماري، وخاصة من المستشرقين الذين رافقوا الحملة الفرنسية على الجزائر. الشيء الذي صعب من مهمة القضاء على

المقاومة الجزائرية في القسم الشمالي من البلاد، وهو ما سيدفع بهؤلاء إلى البحث عن وسيلة أخرى يمكنها مساعدتهم في تجاوز هذه الصعوبات. فما هي أهم الخطوات التي اتبعتها فرنسا في سبيل ذلك؟ وإلى أي مدى نجحت في تحييد الشعب عن مناصرة قضيته العادلة؟

إن الحديث عن هذا المشروع هو مقاربة تاريخية لتوضيح ذلك الانسجام والتكامل في سياسة التوسع الفرنسي في الشمال وفي الجنوب، ولذلك فإني لا أسهب في الحديث عن خلفيته التاريخية بقدر ما أريد تقديم نموذجين من نماذج هذا التوسع المبني على تشتيت الصف الجزائري بتحويل عامل الدين الاسلامي من وسيلة دفاع عن الوطن إلى وسيلة إقناع بقبول الوجود الفرنسي. والنموذج الاول يكمن في ذلك الدور الذي قام به الجاسوس والمرتد "ليون روش"[1] في تمكنه وبدهاء من إصدار فتوى من العلماء المسلمين التي تدعو إلى عدم حمل السلاح ومقاومة العدو الفرنسي أما النموذج الثاني فهو عبارة أيضا عن فتوى تعود في تاريخها إلى سنة 1893م وهي المعروفة بفتوى أهل قورارة. التي أثارت الكثير من الجدل والخلافات حول مقاومة التوسع الفرنسي في الصحراء الجزائرية.

النموذج الاول: رحلة ليون روش إلى الحجاز سنة 1841:

نظرا للانتصارات التي حققها الامير عبد القادر في مقاومته للقوات الفرنسية تحت لواء الجهاد يقوم الجنرال "بيجو" بتعيين "ليون روش" في سنة 1841م للقيام

---

1 – ولد في مدينة غرونوبل الفرنسية في سنة 1809م، من أبوين فرنسيين وتوفي في نفس المدينة في سنة 1901م ، زاول دراسته في مسقط رأسه وأتمها في ثانوية تورنون التي نال منها شهادة البكالوريا، ونظرا لطابع حب المغامرة الذي نمى في نفسه فإنه قدم إلى الجزائر حيث يعمل والده روش ألفونس كملحقا في خدمات العتاد العسكري منذ السنة 1830م بالجزائر، شغل مناصب عدة في كل من الجزائر وتونس والمغرب الاقصى، ومارس عدة أدوار خطيرة كالتجسس على قدرات الامير عبد القادر عندما التحق بصفوفه وأعلن عن إسلامه، وبعد أداءه لهذه المهمة هرب إلى القوات الفرنسية وأباح لها بالعديد من الاسرار عن جيش الامير...إلخ وبهذا الخصوص يراجع الدراسة التي قدمها الاستاذ يوسف مناصرية في كتابه، مهمة ليون روش في الجزائر والمغرب 1832- 1847.

بمهمة خطيرة جدا وهي استصدار فتوى من العلماء المسلمين تبطل فريضة الجهاد. فاتصل روش بالاطراف المناوئة آنذاك للأمير عبد القادر وعلى رأسهم شيخ الزاوية التجانية التي كان الامير قد حاصرها في سنة 1838م بعين ماضي نظير وقوفها إلى جانب العدو الفرنسي ومعارضته له، وفعلا تمكن من اقناع التجاني بمهمته وهو ما أدى بهذا الاخير إلى استدعاء العديد من الرؤساء والشيوخ الذين سيتم تعيينهم ومرافقتهم لروش في رحلته نحو الحجاز.

وبعد أن تشكلت هذه البعثة أسندت رئاستها إلى روش الذي بالغ في تظاهره بالعابد والناسك، وفي طريقها كانت قد مرت بالعديد من المدن التونسية كصفاقص وقابس والقيروان وبمساعدة القنصل الفرنسي في تونس، وتمكن من إقناع مجلس علماء القيروان بالمصادقة عليها. ثم اتجه نحو مصر حيث علماء الازهر الذين وافقوهم أيضا عليها، وختم رحلته بالوصول إلى الحجاز حيث صادق علماء الطائف ومكة عليها. ثم أرسل بنصها إلى الجنرال "بيجو" في حين توجه هو نحو مدينة روما إلى غاية أن استدعاه الملك الفرنسي "لويس فيليب"[1] سنة 1842م إلى الجزائر.

وخلاصة ما جاء في هذه الفتوى هي دعوة الجزائريين إلى مهادنة الفرنسيين وعدم التعرض للكفار الذين غزوا بلادهم أو أراضيهم بالقوة، وذلك إذا لم يؤذ هؤلاء نساءهم وأطفالهم، وسمحوا لهم بممارسة دينهم وتركوا لهم حرية إيمانهم[2]. كما أنها تضمنت منعهم من الهجرة خارج ديارهم ولا يمكنهم من حمل السلاح

---

1 – لويس فليب 1773 – 1850، ملك فرنسا من سنة 1830 – 1848 عرف بتشدد في رفض الاصلاحات التي كان يطالب بها الاحرار ورجال الفكر المتنورين، وهو ما ساهم في ظهور ثورة 1848م التي أزاحته من الحكم، يراجع، المنجد في اللغة والاعلام، ص 501.

2– يوسف مناصرية، مهمة ليون روش في الجزائر والمغرب 1832 – 1847م، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1990، ص: 41.

ماداموا عاجزين عن إخراجهم من الجزائر بالقوة. ولتقريبها من المسلمين فإنها علقت على جدران المساجد وألقيت في الخطب ونشرت في جريدة المبشر.

إن هذه الفتوى ساهمت وإلى حد ما في إحداث ارتباك كبير في صفوف الجزائريين، وخاصة ضعاف النفوس منهم الأمر الذي حدا بهم إلى التقاعس عن الجهاد والركون إلى الراحة. ولإظهار أثرها على الجزائريين أكتفي بالاشارة إلى ما جاء على لسان بيجو نفسه في خطابه إلى الجنرال "لاموريسيير" بوهران: لقد كان سفر روش إلى مكة وانجراره وراء الحجاج أمرا لم أرضه، ولكم نظرا لما كسبناه من وراء ذلك من الناحية السياسية المحضة، فقد نال إعجابي وصارحته على السعي المحمود[1]. ولزيادة مغالطة المسلمين الجزائريين فإن بيجو أعد ختما ونقش على أحد شطريه اقتباس من القرآن الكريم وجاء على أحد شطريه ما يلي: إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده[2]. ولم يكتف روش بهذا الدور فقط بل راح يثير الفتنة تارة بين الجزائريين أنفسهم وتارة بينهم وبين إخوانهم المغاربة، فتنة ساهمت وللأسف الشديد في إراقة دماء شعبين شقيقين تجمع بينهم العديد من الروابط التاريخية والدينية والعائلية خدمة للاستعمار الفرنسي، ولكن هكذا حال من يصغ للآخرين دون ترو وتدبر. والخلاصة التي يمكن أن نخرج بها من هذه الفتوى أدرجها ضمن العناصر الآتية:

2 – إن التاريخ الذي صدرت فيه وهو سنة 1841م والظروف التي لابستها تجعلنا نشك إلى حد ما في صحتها، فكيف يعقل أن يقوم روش بهذه الرحلة من الجزائر[3] إلى الحجاز في ظرف زمني قصير جدا، ويتمكن بموجبه من موافقة مجلس علماء القيروان وشيوخ الأزهر وعلماء مكة والمدينة؟ ولم يجد معارضة من لدنهم

---

1 – يوسف مناصرية، المرجع السابق، ص: 42.

2 – الاصل في هذه الاية هو أنها مقتبسة من قوله تعالى في سورة الاعراف: قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين. الاية 128.

3 – محمد الامين بلغيث، المرجع السابق، ص: 136.

سوى ما ذكره بالنسبة إلى العالم محمد بن علي السنوسي الذي رفض التوقيع على استسلام أبناء المسلمين المجاهدين في الجزائر. وعليه فإن ما يمكن قوله وبتحفظ هو أن ليون روش لم يذهب أصلا إلى الحج و لم يتمكن من إفتكاك فتوى من لدن علماء تونس ومصر والحجاز المقرين تجيز تدعو الجزائريين إلى الاستسلام للقدر ومسالمة العدو الفرنسي. وبالتالي فإن ما حدث ما هو الا مجرد وثيقة دينية كتبت بأياد من المخابرات الفرنسية وبمساعدة بعض الجزائريين الذين رأوا في فرنسا الحليف والصديق الذي يحفظ لهم مصالحهم ويدافع عنهم وقت الخطر.

2 – إن الفترة الزمنية التي استغرقتها الرحلة من الجزائر إلى الحجاز سيرا على الأقدام أو بواسطة وسائل السفر التقليدية آنذاك، تجعل من الصعوبة بمكان تحريرها وإرسالها في هذا الوقت القصير، هذا فضلا على الظروف الصعبة التي يمر بها الوفد أثناء الرحلة غير الآمنة، ناهيك عن المسالك الطبيعية الصعبة والوعرة التي تتطلب وقتا طويلا لعبورها، وحتى مجالسة العلماء آنذاك كانت تقتضي الوقت الكافي للتعرف عليهم ونيل صحبتهم فكيف الشأن في إفتكاك الفتاوى من عندهم؟

3 – إن الطابع الذي أضفاه ليون روش ومعرفته بسذاجة من المسلمين جعلته يؤدي دوره كما ينبغي، هذا فضلا على أنها حظيت فعلا بموافقة الكثير من شيوخ ورؤساء الزوايا الأمر الذي سيحتم على الأتباع الاعتراف بها وتصديق ما جاء فيها، دون الخوض في مدى صحتها من عدمها أو المصادر التي نبعت منها، كل هذا والجزائريون كانوا يمرون بظروف قاسية جدا تجعلهم من الصعوبة بمكان التفطن إلى هذه الدسائس والمؤامرات التي حكيت ضدهم، والسؤال الذي سيطرح نفسه في الأخير لماذا لم تكن هناك جهة معينة قامت بالرد على هذه الفتاوى وإبطال مفعولها؟

وإذا كانت هذه الفتوى قد ساهمت على حد ما في تشتيت الصف الجزائري بين مؤيد ومداهن للعدو الفرنسي، فإن فرنسا وجدت في هذا الأسلوب العمل اللائق بها والذي سيمكنها من التوسع نحو الجنوب الغني بطرقه الدينية وبرؤساء

الشيوخ والزوايا الذين ستجعل من الكثير منهم مجرد بيادق تحركهم كما تشاء وهذا ما سنراه في فتوى أهل قورارة وكيف تمكنت من تحقيق سياستها التوسعية.

– النموذج الثاني: فتوى أهل قورارة سنة 1893:

قبل الحديث عن نص هذه الفتوى يجدر بنا الإشارة أن السلطات الاستعمارية كانت قد مارست العديد من وسائل التهديد والوعيد تجاه القبائل الصحراوية، قصد خنق حركة المقاومة وخلق أطراف موالية لها في الصحراء الجزائرية، مستغلة في ذلك الاختلافات بين الطرق الصوفية ونظرتها للاستعمار الفرنسي، وللانتماءات القبلية والأسرية. وليس غايتنا هنا تتبع كل هذه المناورات الفرنسية بقدر ما نحاول تقديم نموذج مصغر لهذه الممارسات الهادفة إلى إقامة مرحلة سلم بالجنوب الغربي الجزائري، وللتفرغ إلى تنفيذ العديد من مشاريعها التوسعية في كل من السنغال ومالي وساحل العاج والكونغو وغينيا، ولقد جاءت هذه الوثيقة في ظل ظروف صعبة كانت تمر بها فرنسا منها:

– امتداد النفوذ الفرنسي إلى تونس منذ سنة 1881م، وأطماعها التوسعية في المغرب الأقصى.

– ثورة الشيخ بوعمامة – 1881 - 1908م

– زيادة حدة التنافس بينها وبين الدول الاستعمارية، والتي كادت أن تؤدي إلى نشوب الحرب بينهما لولا عقد مؤتمر برلين الثاني في سنة 1884م.

1 – زيادة طموح وجهاد الحاج عمر الفوتي والذي كان يهدف لإقامة دولة إسلامية في الصحراء الإفريقية[1].

---

1 – محمد الامين، المرجع السابق، ص: 138.

وإذا كان أحد الشيوخ من العلماء المسلمين في منطقة الجنوب الغربي قد حاول إرسال مجموعة تساؤلات فقهية إلى علماء الإسلام في مكة، ليعرف رأي الشرع المحمدي في ما يمكن القيام به إذا عجز المسلم عن مجاهدة الكافر؟ وهل يمكن البقاء تحت رايته إذا لم يتعرض للمسلمين في عبادتهم وعقيدتهم؟ وفي هذه الأثناء يتمكن المقيم العام بالجزائر "جول كامبون" من استصدار فتوى خلال موسم الحج لسنة 1893م. عندما كلف أحد الحجاج الجزائريين وزوده بالهدايا بالاتصال بشيوخ المذاهب السنية المقيمين في مكة المكرمة والحصول منهم على فتوى حول موضوع الهجرة، مقلدا بذلك ما فعله الجنرال "بيجو" حسب زعم روش عندما استصدر الفتوى السابقة الذكر. وكان غرض المقيم العام من هذه الفتوى هو استخدامها لمد نفوذ فرنسا في واحات توات،ولمجابهة حركة الهجرة التي بدأت تظهر في الأفق في مختلف المناطق بشمال البلاد.

نص الفتوى:

«ما قولكم في أهل بلدة مسلمين استولى عليهم الكافر وصار حاكما عليهم و لم يتعرض لهم في أمور دينهم بل يحثهم على إجراء أحكامهم الدينية ووظف عليهم قاضيا من أهل دينهم يجري عليهم الأحكام الشرعية وجعل له معاشا وافرا يأخذه على رأس كل شهر. فهل مع هذا تجب عليهم الهجرة أم لا؟ وهل تجب عليهم مقاومته ومحاربته مع عدم قدرتهم على ذلك أم لا؟ وهل بلدهم التي استولى عليها يقال دار حرب أم دار سلام؟ بينوا لنا بيانا شافيا وقاطعا للتراع أيد الله بكم الدين»[1].

---

1 – جمال، قنان، نصوص سياسية جزائرية في القرن التاسع عشر 1830 – 1914 ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993 ص: 262 – 264 ويراجع أيضا: محمد الامين بلغيث، التوسع الفرنسي في الجنوب الغربي الجزائري، المرجع السابق ص: 133 –145.

الإجابة: «قال العلامة نحو العلامة رحمه الله في جواب نحو المسول (كذا) عنه: المهاجرة واجبة من موضع لا يتمكن الرجل من إقامة أمور دينه بأي سبب كان ومن لم يقدر على ذلك يجب عليه الهجرة إن قدر عليها بأن كان له مال يكفيه لمئونة الأثقال. فقد قال الله سبحانه وتعالى في حق قوم أسلموا و لم يهاجروا مع تمكنهم من ذلك ﴿**إنّ الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم، قالوا فيما كنتم، قالوا كنا مستضعفين في الأرض، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها**﴾. فلم يعذرهم ربهم مع استضعافهم بتمكنهم من المهاجرة إلى محل آخر إلا من استثنى في آخر الآية قال تعالى ﴿**إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان**﴾. والمعنى أن جهنم مأوى جميع من ترك الهجرة إلا من هو مستضعف من جنس الرجال والنساء والولدان حال كونهم لا يستطيعون حيلة في الخروج لعجزهم وفقرهم ولا يهتدون سبيلا أي لا معرفة لهم بالمسالك فأولئك عسى الله أن يغفر عنهم ترك الهجرة كذا قاله علماء التفسير وقال ﷺ: من فر بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبرا من الأرض استوجبت له الجنة وكان رفيق أبيه إبراهيم ونبيه محمد صلوات (كذا) الله عليهم أجمعين. وفي معراج الدراية عن المبسوط: البلاد التي في أيدي الكفار بلاد إسلام، لا بلاد حرب لأنهم لم يظهروا حكم الكفر بل القضاة والولاة مسلمون يطيعونهم عن ضرورة أو بدونها وكل مصر فيه وال من جهتهم يجوز له إقامة الجمع والأعياد والحدود فلو (كذا) الولاة كفارا يجوز للمسلمين إقامة الجمع ويصير القاضي قاضيا بتراضي المسلمين ويجب عليهم أن يلتمسوا واليا مسلما. وفي تنوير الأبصار وشرحه الدر المختار: لا تصير دار الإسلام دار حرب إلا بأمور ثلاثة بإجراء أحكام أهل الشرك وباتصالها بدار الحرب وبأن لا يبقى فيها مسلم أو ذمي آمنا بالأمان الأول على نفسه. قال العلامة الطحطاوي في حاشيتة عليه وظاهره أنه لو أجريت أحكام المسلمين وأحكام أهل الشرك لا تكون دار حرب، فعلم مما نقلناه أنه متى وجد قاض من المسلمين ولو بإقامة الكافر له وأجريت أحكام المسلمين على ما وصف أعلاه لا تخرج البلاد على أن تكون دار إسلام. والله

سبحانه أعلم، أمر برقمه خادم الشريعة والمنهاج عبد الرحمن بن عبد الله سراج الحنفي مفتي مكة المكرمة كان الله لهما حامدا مصليا مسلما».

جواب مفتي الشافعية بمكة المكرمة عن السؤالين الثاني والثالث:

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والسالكين لنهجهم بعده. اللهم هداية الصواب، في فتاوى الشيخ محمد بن سليمان الكردي محشي شرح ابن حجر أن إقامة المسلمين بدار الكفر على أربعة أقسام: إما لازمة بأن قدروا على الامتناع من الكفر والاعتزال عنهم ولم يرجوا نصرة المسلمين لأن موضعهم دار الإسلام، فإذا هاجروا صار دار حرب، أو مندوبة بأن أمكنهم إظهار دينهم ويرجى ظهور دينهم فحينئذ إذا كان في إظهار الدين وأحكام المسلمين من حدود وغيرها إهلاك البلاد وقتل المسلمين بسبب أنه يتعاطاه الوالي الكافر ولا يفوضه إلى حكم الإسلام حرمت الإقامة عندهم ووجبت الهجرة إلا لعاجز لا يقدر عليها فيعذر. انتهى، ومن ذلك علم حكم السؤال الأول وجواب السؤال الثاني: لا تجب مقاومة الكفار مع عدم القدرة والله أعلم.

وجواب السؤال الثالث: أن بلاد الإسلام لا تصير باستيلاء الكفار عليها دار حرب، والله سبحانه وتعالى أعلم. رقما لما تجري به كلال النبل محمد سعيد بن محمد بابصيل مفتي الشافعية بمكة المحمدية غفر الله له ولوالديه ومشايخه وجميع المسلمين. الختم الحمد لله وحده اللهم هداية للصواب. أما بعد فإني قد نظرت فيما أفاده السادة الأعلام فوجدته هو الصواب المعول عليه ولا يكون الاعتماد إلا عليه فجزاهم الله أحسن الجزاء وأقام بهم شعائر الدين وبالله الاعتماد. أمر برقمه مفتي المالكية بمكة محمد عابد ابن المرحوم الشيخ حسين. وقبل إتمام هذا الملف أود الإشارة إلى بعض الملاحظات المتعلقة بهذه الفتوى في النقاط الآتية:

1 - الفتوى جاءت مُوجهة وليست مُوجِهة كونها جاءت لخدمة المصالح الاستعمارية في المنطقة، ونلاحظ أيضا اقتصارها على عدد محدود من المفتين الذين

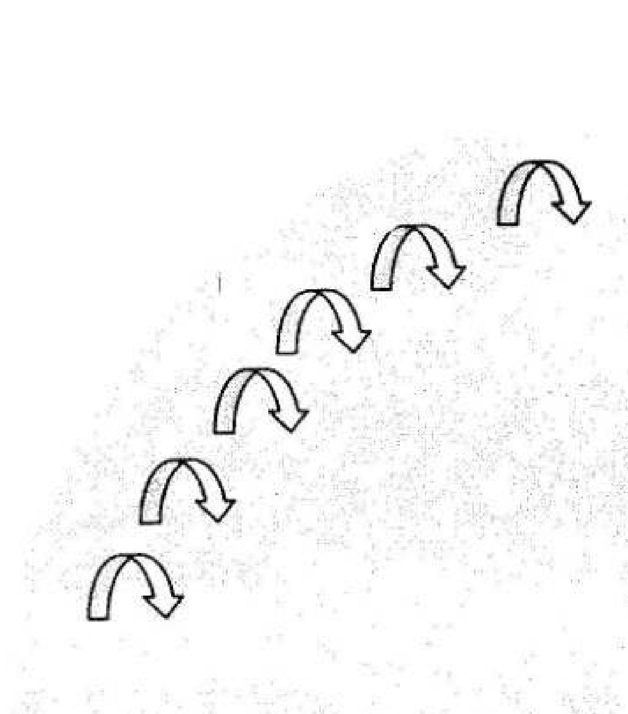
من دون شك هم محسوبون على فرنسا، ومضمونها عكس ما جاء في إجابة الشيخ التسولي عبد القادر في سنة 1836م، إذ حثه فيها على جهاد العدو والكافر وليس مهادنته.

2 – غياب أدنى تحفيز للجزائريين على مواجهة العدو بل ركزت على ضرورة التسليم بالأمر الواقع، من دون مراعاة للظروف التي عليها الجزائر، وحتى الذين قدموا هذه الفتوى كانوا بعيدين كل البعد عن ما يحدث في الجزائر، والأصل في الفتوى الشرعية أنها تراعي ظروف المكان والزمان، ولذلك فما أفتى به هؤلاء قد لا يتفق ومصالح الجزائريين، كون الفتوى تخضع للظروف وأن ما يلتزم به طرف معين في جهة معينة قد يسقط على طرف آخر في جهة أخرى من العالم.

3 – غموض في الكثير من معانيها وقلة الاستدلال بما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، كونهما من المصادر الرئيسية في مثل هذه المسائل.

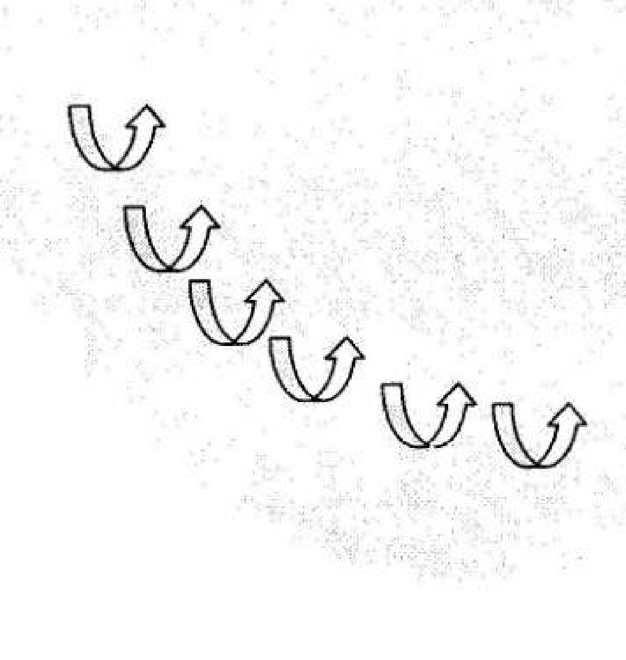
4 – وبخصوص الأثر الذي تركته في أوساط الجزائريين فإنها أحدثت نوعا من الانقسام في المجتمع الجزائري، وظهرت هناك العديد من الأسر الجزائرية التي تمكنت السلطات الفرنسية من كسبها وسحبت منها الغطاء الروحي والسياسي والتمثيلي لدى الشعب الجزائري. الأمر الذي أوجد حتما أسر أرستقراطية سنراها فيما بعد تخرج لنا جماعة النخبة.

5 – في ظل هذه الأثار وجدت فرنسا متنفسا لها وشبه استقرار في المنطقة وهو ما حذا بها إلى التوسع ليس فقط في الصحراء الجزائرية، وإنما على حساب المغرب الأقصى التي تمكن من فرض حمايتها عليه في سنة 1912م، وبذلك تكتمل آخر حلقة من حلقات التوسع الفرنسي في شمال القارة الإفريقية.



الفصل الرابع

التنصير في الجزائر



1 – مفهوم التنصير والتبشير

أولا: مفهوم التنصير:

لغة: التنصير من نَصَّرَ، يُنَصِّرُ، تَنْصِيرًا. والتَّنَصُّرُ: الدخول في النصرانية ونصّره جعله نصرانيا. وفي الحديث: كل مولود يولد على الفطرة حتّى يكون أبواه اللذان يهوّدانه، وينصّرانه[1]. وتنصّر الشخص دخل النصرانية، فصار من النصارى، قال تعالى ﴿... **الذينَ قَالُوا إنَّا نصارى**﴾.[2]

ولما كان مصطلح النصارى مصطلحا قرآنيا، أصبح النصارى يطلقون على أنفسهم المسيحيين بدلا عنه.

اصطلاحا: ترادف كلمة تنصير (mission) أي: إرسالية تنصيرية والعمل في صقل التنصير وكلمة (missionnaire) أو (missionary) تعني منصِّر ضمن إرسالية.

وللتنصير مدلولات اصطلاحية منها:

1 – الجهود المنظمة والمقصودة والمدعومة من قبل حكومات أو هيئات لتنشر النصرانية في العالم.

2 – حمل الناس بصورة أو بأخرى، أفرادًا أو جماعات من عقيدة غير نصرانية سواء كانت إسلامية أو وثنية أو غيرها إلى العقيدة النصرانية.

3 – اتجاه الكنيسة في الدعوة والعمل المنظم في بلدان كثيرة لتحويل الناس فكريا، وعقائديا وسلوكيا إلى النصرانية.[3]

---

1 – ابن منظور، لسان العرب: مادة "نصر"، ص: 4441

2 – سورة المائدة الآية (14)

3 – أ سعيد عليوان، **التنصير وموقفه من النهضة الحضارية المعاصرة في الجزائر** (رسالة دكتوراه دولة)، جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة 2001، ص: 112.

وبما أن مصطلح التنصير يعبّر عن مضمونه فإنه تمّ استبداله بمصطلح التبشير الذي أصبح المصطلح الأكثر تداولا كنسيا وإعلاميا وحضاريا.

ثانيا: مفهوم التبشير:

لغة: التبشير من بشّرَ، وبَشرَ، وتَبشَّرَ، يقال: بَشَرْتُهُ فَأَبْشَرَ، واسْتَبْشَرَ، وتَبشَّرَ. والتبشير يكون بالخير، ولا يكون بالشر إلاّ إذا قيّد كقوله تعالى: **﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾**.[1]

والتبشير يعني الخبر الذي يفيد السرور، إلاّ أنّه بحسب أصل اللغة عبارة عن الخبر الذي يؤثر في البشرة تغييرًا، وهذا يكون للحزن أيضا.[2]

اصطلاحا: التبشير (evangelisation) في معناه الأصلي والاشتقاقي هو دعوة لاتباع ما جاء به الإنجيل من عقائد وتعاليم. فلفظة الإنجيل ذاتها تفيد معنى التبشير، أي حمل الناس بصورة أو بأخرى – فُرادى أو جماعات – من عقيدة ما إلى العقيدة المسيحية. تعاطى رجال الدين المسيحيون الغربيون هذه "الصناعة" وجعلوا منها علما لاهوتيا، وساند البابوات هذا العمل[3].

كما يطلق على المبشرين في أوروبا اسم الإرساليين (les missionnaire أو evangelisation)، وتعني (ev): الخيّر و angelisation: الملائكي. ومن هنا جاء المعنى المقصود من التبشير[4].

كما عرّف التبشير بتعاريف عديدة، كلّها مرتبطة بهذا المعنى، منها:

---

1 – سورة الانشقاق الآية: 24.

2 – حسن رمضان فحلة، الخطر الداهم على العرب والمسلمين، ص: 188.

3 – بلقاسم الحناشي، الحركات لتبشيرية في المغرب الأقصى في النصف الثاني من القرن 19، ص 37.

4 – عميراوي أحميدة، من الملتقيات التاريخية الجزائرية، ص 150 – 151.

– توجيه المبشرين نحو المسلمين، وإحلال المسيحية عوضا عنه: إنّها عملية تنصير.[1]

– تلقين الإنجيل مثل: تنصير إفريقيا، وتنظيم نشر المسيحية في العالم عن طريق الدعاية لبث الإيمان[2].

مما سبق، فالتبشير يطلق على جهود الأفراد والجماعات المنظمة والممولة من قبل الحكومات في سبيل نشر الدين المسيحي وتعليمه بين غير المسيحيين.

ثالثا: العلاقة بين التنصير والتبشير:

ممّا سبق، يتضح التشابه الكبير إلى درجة التطابق بين المدلول الاصطلاحي لكل من التنصير والتبشير غير أن المتتبع للمسار التاريخي لكل منهما خاصة في البلاد العربية والإسلامية، يقف على اختلافهما من حيث التطبيق العملي.

إن التنصير خطة دينية هدفها نشر المسيحية بين غير المسيحيين في الأقطار المختلفة، في حين أن التبشير أعم من ذلك. لقد هدف التبشير إلى نشر المسيحية وتوظيفها للتبشير بالمدينة الأوروبية. أي أنه خدم التنصير والمدنية الأوروبية معا[3]. إضافة إلى أن التبشير ارتبط ارتباطا وثيقا بالاحتلال الأوروبي، فكان عاملا مساعدا على التوسع في كثير من البلدان، لاسيّما العربية والإسلامية منها.

كما أن مفهوم التبشير قد تطوّر، فلم يعد يهدف إلى إخراج المسلم من الإسلام وإدخاله في النصرانية، بل أصبح عملية ثقافية واسعة. تستهدف إخراج المسلم من المفاهيم والقيم الإسلامية، وإدخاله في دوامة الفكر التبشيري، وصهره. على مفاهيم

---

1 – حسن رمضان، المرجع السابق، ص 188.

2 – سعيد عليوان، المرجع السابق ص 114.

3 – أ. أحميدة عميراوي، من الملتقيات التاريخية الجزائرية، المرجع السابق، ص 165.

الوثنية والمادية والعلمانية والأمية، وفتح الطريق أمام فكره ليتقبل كل ما تطرحه أعاصير الليبيرالية والماركسية والتلموذية...

المهم هو إخراج المسلم من الإسلام دون إدخاله في دين آخر. وحبسه في دائرة مظلمة مفرغة: دائرة التيه الذي لا تجعل منه قوة صالحة للتوجه إلى لاتجاه الصحيح[1]. وبالتالي تكريس فكرة التبعية لإحكام السيطرة.

إن المفهوم الدلالي والتاريخي للتبشير كما سبق، لا يتطابق مع المفهوم اللغوي الذي يعني نقل الخبر السار. لذلك يرى الكثير من الباحثين المعاصرين استخدام مصطلح التنصير، ليس فقط للدلالة على الخطة الدينية لنشر المسيحية. ولكن للدلالة على المسار التاريخي للتبشير والتنصير على حد سواء.

2 – موجز عن تاريخ التنصير في الجزائر:

يعتبر القرن التاسع عشر الميلادي عصر التنافس الاستعماري الأوروبي على قارة إفريقيا لاسيما على الجزائر لما كانت تمثله للأوروبيين موقع استراتيجي هام فهي تمثل بوابة إفريقيا، وثروات طبيعية هائلة، ومصدر خطر مباشر لجنوب أوروبا. فلقد استطاعت الجزائر بمساعدة العثمانيين ليس فقط أن توقف الزحف الأوروبي والإسباني منه على وجه الخصوص على شمال إفريقيا، بل هددت الجيوش العثمانية أوروبا انطلاقا من الجزائر.

لقد تعرضت الجزائر لحملات عسكرية عديدة بهدف كسر شوكتها، وكانت أشدها الحملة الفرنسية ابتداء من 27 جوان سنة 1827، والتي انتهت باحتلال الجزائر سنة 1830. وهي الحملة التي شجعتها البابوية تشجيعا حثيثا بعد أن شاركت في التخطيط لها، إلى حد أن تصرُّف قنصل فرنسا دوفال مع الداي حسين، كان بإشارة من الفاتيكان الذي اعتبر استعمار فرنسا للجزائر عملا مقدسا.

---

1 – أ. سعيد عليوان، المرجع السابق، ص 117

وكان وراء ذلك وزير الشؤون الدينية الفرنسية الأسقف فرينسوس الذي أثّر على قرار شارل العاشر لصالح غزو الجزائر، الذي كان العامل الديني فيه من أهم أسبابه[1].

لقد كانت الحملة الفرنسية على الجزائر، حملة صليبية، حيث كان شعارها: إضاءة أرض الجزائر بالإنجيل، ينبعث من هناك إلى أرجاء إفريقيا. أو كما قال الكاردينال لافيرجي: (علينا أن نجعل من الأرض الجزائرية مهدا لدولة مسيحية تضاء أجزاؤها بنور مدينة منبع وحيها الإنجيل... تلك هي رسالتنا الإلهية)[2].

لقد ارتبط التنصير (التبشير) بالاحتلال الأوروبي ارتباطا وثيقا، وكوّن أحد أسلحته. بل كان الجبهة التي ارتكز عليها في تدعيم أركانه وتثبيت دعائمه. يقول كورنفان (cornevin): (إن مسار الحركة الاستعمارية لإفريقيا يعكس أهمية الدور الذي لعبته الإرساليات المسيحية، حتى أن هؤلاء المبشرين تبوأوا مكانة الاستعمار)[3] كما صرح النائب الفرنسي فرناند أنجران قائلا: (إن المبشر يعمل من أجل ازدهار الفكرة الاستعمارية للبلاد التي ينصرها وبذلك يرفع المعنويات الروحية والأخلاقية للأهالي... وأن النشاط التبشيري والنشاط الاستعماري شيئان متلازمان. لأن الهدف الأسمى للاحتلال هو التقدم الروحي والأخلاقي للمستعمرين)[4].

لقد اهتمت أوروبا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي اهتماما كبيرا بالحملات التنصيرية. فالكاثوليكية كانت في حماية فرنسا، والأرثوذكسية تحت

---

1 – الطاهر العمري، دور البنى المجتمع الجزائري في مقاومة الاستعمار (رسالة ماجستير)، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة 1999 ص 90.

2 – صالح عوض، معركة الإسلام والصليبية في الجزائر، من سنة 1830 إلى سنة 1962، ص 208 – 209.

3 – بلقاسم الحناشي، الحركة التبشيرية في المغرب الأقصى في النصف الثاني من القرن 19م، ص 29.

4 – خديجة بقطاش، الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر (1830 - 1871)، ص: 12.

رعاية روسيا والبروتستانتية تدعمها إنجلترا. أما الهدف من الوقوف وراء التبشير (التنصير) هو الرغبة في تنشئة جيل يدين بالولاء للدولة التي تحمي المدرسة التبشيرية، زيادة عن الولاء للثقافة الغربية، والتنصل من الشخصية القومية العربية الإسلامية في بعدها الديني واللغوي[1].

إنّ هذا الأمر يتضح بصورة جلية بتصريح جنرالات الحرب الفرنسيين، منهم الجنرال بيجو (Bugeaud) الذي صرّح عندما سلم الأب بريمو (Brimau) أطفالا جزائريين بقوله: (حاول يا أبي أن تجعلهم مسيحيين، وإذا فعلت فلن يعودوا إلى دينهم، ليطلقوا علينا النار)[2] كما بين بيجو (Bugeaud) جدوى سياسة التنصير في خدمة الاستعمار، بقوله: (إن العرب لا يقبلون فرنسا إلا إذا أصبحوا فرنسيين، ولن يصبحوا فرنسيين إلاّ إذا أصبحوا مسيحيين)[3].

مما سبق ندرك العلاقة الوطيدة بين الإرساليات التنصيرية في التنصير والاحتلال الفرنسي في الجزائر. كما ندرك ذلك أيضا من خلال الحملة، والتصريحات، والأعمال الأساسية التي قام بها جيش العدوان بعد الاحتلال، والمخطط الذي أعده. فتركيبة الحملة شملت كل الهيئة الأيديولوجية من العسكري إلى القسيس إلى رجل الفكر والاستشراق إلى المعمر والرسام... كلهم يتعاونون وقد خصص القس كولان (colan) ليكون رئيس للمرشدين العسكريين، وقائدا روحيا للحملة. إضافة إلى خمسة عشر (15) قسيسا، أحدهم سوري الجنسية جعل مترجما في الإدارة العامة[4].

---

1 – بلقاسم الحناشي، المرجع السابق، ص: 46.
2 – صالح عوض، المرجع السابق، ص: 208.
3 – سعيد عليوان، المرجع السابق، ص 108
4 – سعيد عليوان، المرجع السابق، ص 101

بوادر التنصير في الجزائر:

لقد سعى المنصرون أثناء الاحتلال الفرنسي للجزائر إلى تمسيح الوسط قبل تمسيح الروح وقد تمّ ذلك عن طريق المحو الكلي أو الجزئي للمظاهر الدينية الإسلامية في المجتمع الجزائري، إضافة إلى بناء الكنائس والأسقفيات التي تعمل على نشر التعاليم المسيحية. ويمكن إجمال عملهم فيما يلي:

أولا: تمسيح العمران

وقد تمّ ذلك بمحاولة محو الطابع الإسلامي المميز للمدن خاصة مدينة الجزائر.

ثانيا: تمسيح المؤسسات الدينية والتضييق على الأئمة وعلماء الدين.

لقد أقدم جيش الاحتلال منذ الوهلة الأولى على تمسيح المؤسسات الدينية مثل: المساجد والزوايا، أو على تدميرها أو تحويلها إلى أغراض أخرى وإذا أردنا حصر مظاهر التنصير في هذا المجال، فيمكن إجمالها فيما يلي:

- غلق الزوايا بحجة أنها المحرضة على الثورة.

- إخضاع القضاء الإسلامي للقضاء الفرنسي وقد تمّ ذلك بعد قرار أكتوبر سنة 1830م في عهد الجنرال كلوزيل.

- نفي علماء الدين، وإبطال شرعية المواسم الإسلامية

- إرغام الأئمة على إلقاء خطب يوم الجمعة باسم فرنسا[1]

- إضافة إلى مصادرة الأوقاف، وقد كان الهدف من ذلك هو قطع الموارد المالية على المؤسسات الدينية، وأيضا تحطيم اقتصاد البلاد. حيث سعى الاحتلال

---

1 – خديجة بقطاش، المرجع السابق، 31.

الفرنسي إلى تحويله من الحبوب إلى الخمور وتجريد الناس من أملاكهم ليسهل عليه تنصيرهم.[1]

- نهج سياسة الفرنسة ومحاولة القضاء على اللغة العربية والثقافة الإسلامية والتراث الإسلامي. والعمل على نشر لغة المستعمر ودينه وتاريخه وتغذية اللغات أو اللهجات المحلية والعمل على نشرها مثل البربرية[2].

- هدم المساجد وتحويل بعضها إلى كنائس بحجة إقامة الشعائر الدينية المسيحية بها، مثل مسجد أحمد باي في مدينة قسنطينة ومسجد كتشاوة في مدينة الجزائر.

أهم شخصيات التنصير في الجزائر: (من سنة 1830 إلى سنة 1916م)

لقد برزت في هذه الفترة التاريخية شخصيات دينية مسيحية كثيرة، اضطلعت بدور بارز وخطير في تدعيم الحركة التنصيرية وخدمة الاحتلال الفرنسي. على سبيل المثال: أميلي دوفيار، والأسقف أنطوان ديبيش (Dupuch)، وفرانسو بورغاد (Bourgad)، والكاردينال شارل لفيجري، والأب شارل دي فوكو وغيرهم كثير.

لقد كانت إيميلي دوفيالار مع مجموعة من الراهبات، وقد قامت إيميلي بدور مهم بالنسبة للحركة التنصيرية في الجزائر على وجه الخصوص، حيث كان لها الفضل في فتح المدارس لتعليم البنات وبناء الملاجىء للأيتام والمشردين وبناء المستوصفات لعلاج السكان الفقراء ومن خلالها باشرت أعمالها التنصيرية والتبشيرية في آن واحد. كما كان لوجود فرانسو بورغاد الذي جعلته إيميلي مرشدا دينيا لفرقتها أثر في العمل التنصيري.

---

1 – أ. سعيد عليوان، المرجع السابق، ص 109.

2 – كما فعل الأب شارل دي فوكو، عندما اهتم بدراسة "التمشيق" اللهجة المحلية للطوارق.

كما تأسست أسقفية الجزائر بتاريخ 8 أوت سنة 1838م وعين الأسقف أنطوان ديبيش أول أسقف لها[1]. فكان لها دور في خدمة المسيحية والاحتلال الفرنسي.

الأسقف أنطوان ديبيش (Dupuch)[2]

لقد كان ديبيش يؤمن بضرورة إرجاع المسلمين الجزائريين إلى دين أجدادهم المسيحية، وذلك عن طريق تقديم الخدمات الاجتماعية وتحبيب المسيحية لديهم حيث يقول: (يجب أن تكون رسالتنا بين الأهالي... وينبغي علينا أن نعرِّفهم بدين أجدادهم الأولين بالخدمات الخيرية)[3] وقد كان ديبيش يستغل حاجة الناس، فكان يوزع عليهم الخبز، ويرغِّب من يقبل التعميد بإعطائه مبلغا ماليا. ومن مساعيه أيضا جمعه للأطفال المشردين، وهو عمل لقي تشجيعا من البابا غريغوار السادس عشر الذي تمنى أن يساهم أيضا في هذا العمل[4].

فرانسوا بورغاد (Bourgad)[5]

لقد عمل فرانسو بورغاد كمرشد ديني لفرقة إميلي دوفيالار عند مجيئه إلى الجزائر سنة 1838م. كما فتح مركزا خيريا بمدينة بوفاريك مارس خلاله أعماله التنصيرية، بالاعتماد على الإحسان واستغلال ظروف الناس وحاجتهم للطعام والدواء.

---

1 – خديجة بقطاش، المرجع السابق، ص 15.
2 – كان الأسقف ديبيش من أبرز الذين كرسوا جهودهم لكتابة تاريخ الكنيسة الإفريقية وذلك بتأليف كتاب (الجزائر المسيحية الرومانية الفرنسية)، حاول فيه إحياء ماضي المسيحية بإفريقيا واستمرايتها.
3 – خديجة بقطاش، المرجع السابق ص 52
4 – خديجة بقطاش، المرجع السابق ص 53
5 – ولد بمدينة نانسي (nancy) سنة 1806م لم يكمل تعليمه الثانوي، فالتحق بالمدرسة اللاهوتية فتخرج منها قسيسا. وقد جاء إلى الجزائر سنة 1838م ليباشر مهامه التنصيرية. ويعد بورغاد من ألمع رجال الدين المنصرين في الجزائر وتونس.

ثم تبين لبورغاد عدم نجاعة هذا السبيل في التنصير، فقرر إحداث فلسفة جديدة في ممارسة التنصير لا تهمل هذه الوسيلة. ولكن تضاف إليها وسائل أخرى نجاعة وفعالية منها ما يلي:

التعليم:

وقد حدّد بورغاد أهدافه الجوهرية وهي: الفرنسة والتغريب والتنصير، فالمدرسة عنده وسيلة لتحقيق أهدافه. يقول: (إن التعليم والدين يبدأ مبكرا في نفوس الأطفال، وإن العقيدة تغرس في نفس الطفل منذ الصغر في البيت أولا، وفي المدرسة ثانيا. فعلينا أن نبدأ من حيث بدأ الإسلام)[1] ولتحقيق هذه الأهداف أسس مدرسة سان لويس كما أسس روضة سنة 1846م .

التطبيب:

أسس بورغاد مستشفى سان لويس، وكان يمارس التطبيب بنفسه بمساعدة الراهبات.

إحياء النزعة العرقية بالدعوة إلى البربرية:

لقد ألف بورغاد كتابا تحت عنوان: اللغة الفينيقية سنة 1856 م أراد من خلاله تجديد الروح البربرية لإدراكه بأنها ثغرة مهمة في تشتيت المسلمين الجزائريين وتمزيق وحدتهم.

إنشاء الجمعيات التنصيرية:

أهم جمعية أنشأها هي جمعية "سان لويس" سنة 1847م

---

1 – سعيد عليوان، المرجع السابق، ص: 136 – 137.

1 – الكاردينال شارل لافيجري (Lavigerie)[1]

وصل لافيجري إلى الجزائر في 15 ماي 1867م، وقد جعل من بين أهدافه الرئيسية ما يلي:

- جعل الجزائر نقطة انطلاق في تنصير إفريقيا
- إحياء الماضي النصراني الروماني للمنطقة

– جعل التنصير ركنا أساسيا في البناء الاستعماري، لاسيّما بعد اتحاد الكنيسة مع أقطاب الاحتلال الفرنسي على وجه الخصوص.

كانت المجاعة الكبرى عام 1867م التي قضت على نصف مليون مسلم، فرصة ذهبية لهؤلاء المنصرين، خاصة الكاردينال لافيجري كاردينال الجزائر، فأسس جماعة الآباء البيض وهي من أنشط البعثات التنصيرية في الجزائر. وقد كان الهدف منها هو منافسة البعثات البرتستانتية التي تدفقت إلى الجزائر من أوروبا. وجعل لافيجري بلدة الحراش القريبة من العاصمة مركزا رسميا لها[2].

وقد اختلفت فرقة الآباء البيض عن الفرق التي كانت موجودة آنذاك في الجزائر أشياء كثيرة، ذلك أن لافيجري أدرك أن اللباس الديني المسيحي لرجال الدين، قد يخلق هوة بينهم وبين السكان، لذلك أشار على أعضاء الفرقة الجديدة أن يترقبوا من (الأهالي)، باتخاذ عاداتهم وطرق معيشتهم في لباسهم[3] ولغتهم[4] لكي يكون

---

1 – هو شارل مارسيل ألمان (1825 – 1892م) ولد في مدينة بايون بجنوب فرنسا تولى منصب رئاسة أسقفية الجزائر.

2 – صالح عوض، المرجع السابق، ص 208.

3 – يتكون لباس الآباء البيض من جبة طويلة صوفية أو قطنية. يوضع فوقه برنوس أبيض ومن شاشية حمراء على الرأس، وتحاط الرقبة بمسبحة وردية بها صليب أبيض أو أسود، وكثيرا ما كان الأب يترك لحيته طويلة.

4 – كان على الأب أن يتلقى تكوينا دينيا بمركز الحراش، المركز الرسمي لفرقة الآباء البيض، وذلك لمدة سنة كاملة يسمح له بتعلم اللغة العربية مع اللهجات المحلية التي تسهل له عمله التنصيري. ويأخذ أيضا دروسا في الطب التطبيقي.

احتكاكهم بالأهالي شديدا، ومفيدا، وصور لهم عظم المسؤولية قائلا: (إن رجال الدين قاموا بإصلاح الأراضي في فرنسا وتعميرها، وتنصير سكانها بعد أن اكتسحت هجومات البربار الأراضي الأوروبية، وهذا ما يجب عمله في إفريقيا، بعد زحف الإسلام عليها).

وقد ركز لافيجري من خلال فرقة الآباء والأخوات البيض على ميادين كثيرة أهمها: التطبيب، والتعليم حيث أسس الكثير من ملاجىء الأيتام كملجأ سان سيبيريان، والقرى كقرية "سانت مونيك" للأطفال،وهذا لسهولة التنصير بينهم على عكس الكبار، كما كان يرى ولاستكمال مشروعه التنصيري، لجأ لافيجري إلى تكوين المنصرين من الأهالي أنفسهم، لأن التنصير في نظره إذا تمّ بين إفريقي لإفريقي يكون أكثر نجاعة من فرنسي لإفريقي. ولتحقيق ذلك أسس المراكز التنصيرية في مختلف المناطق، لاسيما في منطقة القبائل حيث يتواجد البربر الذين ركز عليهم لافيجري كثيرا. من هذه المراكز:

1 – مركز توريت عبد اللّه في آيت واصو سنة 1813 م، وبه ثلاثة (3) منصرين

2 – مركز تغموفت عزوز في بني عيسى سنة 1873م، وبه خمسة (5) منصرين

3 – مركز ورزان في بني منقلات سنة 1876م وبه خمسة (5) منصرين[1].

لقد ساهمت فرقة الآباء والأخوات البيض في الحركة التنصيرية بقسط كبير ليس فقط في الجزائر وغنما في إفريقيا كلها. حيث يعتبر الكثيرون تأسيسها على يد لافيجري انطلاقة كبيرة في ميدان التنصير الذي بلغ ذروته في هذه الفترة.

الأب شارل دي فوكو (De Foucauld) وهو موضوع الدراسة.

---

1 – سعيد عليوان، المرجع السابق، ص 630

إن التنصير يعتبر ظاهرة خطيرة ارتبط ارتباطا وثيقا بالاحتلال، وكوّن أحد أخطر أسلحته. خاصة بعد تغيير الكنيسة لأساليبها القديمة. فمع بداية النصف الثاني من القرن 19 ميلادي، أصبحت الكنيسة لا تدعو مباشرة إلى اعتناق المسيحية، بل ركزت على الأعمال الخيرية من إنشاء المستشفيات والمستوصفات، ومآوي للأيتام والمشردين، وبناء المدارس وغيرها. ومن خلال ذلك حقق المنصرون أهدافهم. يقول شارل دي فوكو: (... إننا إذا لم نجعل منهم (أي السكان) رعايا فرنسيين، فإنهم سيطردوننا. والوسيلة الوحيدة ليصبحوا فرنسيين هي أن يصيروا نصارى (أو مسيحيين)[1] وهذا هو الأسلوب الذي اتبعه جلّ المنصّرين في الجزائر).

إن المنصرين إذا كانوا قد أخفقوا في نقل جميع الجزائريين إلى المسيحية اعتقادا وعملا، فإنهم دون شك نجحوا في توسيع مناطق الاحتلال وتثبيت أركانه أكثر من قرن. وذلك بمساعدة الأهالي الذين تنصروا. كما نجحوا في إثارة الشكوك حول الإسلام وإحياء النعرات وتفريق المسلمين الجزائريين إلى عرب وبربر بعد أن وحدّهم الإسلام.

2- الأب شارل دي فوكو نموذجا:

مولده ونشأته: ولد شارل دي فوكو (**charles de Foucauld**) في 15 سبتمبر 1858 م بمدينة ستراسبورغ في فرنسا[2]. وقد نشأ بها يتيما، حيث توفي والده[3] في سنة 1864م وهو في طفولته[4] فكفله شقيقته وجدّه لأمه الذي كان ضابطا فرنسيا.فتأثر به فوكو، كما تأثر بأسلافه الذين كان منهم رهبانا، خدموا

---

1 – بلقاسم الحناشي، المرجع السابق، ص 87.

2 – Marie André ، L'ermite du grand Désert ، le père de foucauld imprimerie fournir Toulouse 1973 ، p: 7

3 – Mare – sibylle du lau ، et ، françois – Edouard vicompte

4 – René bazin ، charles de Foucauld librairie plon 1925 p10

الكنيسة الكاثوليكية[1] وقد ظهر هذا التأثر خاصة في شبابه، عندما كرس حياته لخدمة المسيحية.

تلقى دي فوكو تعليمه الابتدائي في أسقفية سانت – أربوقاست **(saint – arbogast)** بمدينة ستراسبورغ، ثم بثانوية أمبريال **(impérial)** بمدينة نانسي إلى سنة 1870م حيث توقفت الدراسة بها بسبب الحرب الفرنسية – الألمانية، ثم بثانوية ناسيونال **(National)** التي ظل بها إلى أن حصل على شهادة البكالوريا وقد كان أول تقرب له بالكنيسة سنة 1872م بكنيسة نانسي، حيث يقول دي فوكو في رسالته إلى الجنرال سيسبيال **(susbielle)**، تمنراست 8 سبتمبر 1915م: (... وفي نفس الكتدرالية **(La cathédrale)** بمدينة نانسي تناولت القربان لأول مرة في سنة 1872م حيث استقر المقام بجدّي في مدينة نانسي بعد حرب سنة 1870م)[2].

كانت مدينة باريس محطّة أخرى في حياة دي فوكو، فبعد حصوله على شهادة البكالوريا، انخرط في الحياة العسكرية. حيث التحق بمدرسة سانت – سير **(saint cyr -)** في سنة 1876م وقد مثلت هذه المرحلة أصعب مرحلة في حياة ديفوكو، حيث بسبب إهماله وسوء تصرفاته، تعرض خلال إقامته بهذه المدرسة العسكرية إلى (45) عقوبة و(47) إيقاف وكانت رتبته 333 من 386.[3]

وفي سنة 1878م التحق بمدرسة سومير **(Saumur)** للخيالة، ومن خلالها أرسل سنة 1880م إلى الجزائر ضمن فرقة عسكرية وقد كانت هذه أول مرة يسافر فيها إلى بلد عربي.

---

1 – هو العقيد الفرنسي مورلي (Morlet)

2 -- Marie André p 11

3 - Marie André p 13

لقد كان لتواجد ديفوكو في الجزائر الأثر في تغير منهج حياته، حيث قدم استقالته لما عاد إلى فرنسا، وتخلى بموجبها عن مركزه العسكري ورتبته العسكرية وذلك سنة 1882م ليتفرغ لخدمة المسيحية والاحتلال الفرنسي عن طريق التنصير.

عاد دي فوكو إلى الجزائر سنة 1883، ليجعلها نقطة بدء وعودة في رحلته إلى المغرب. ثم يرجع إليها سنة 1885 م فزار مدنا عديدة في الجنوب الجزائري، كما زار تونس ومنها عاد إلى فرنسا سنة 1886م

لقد استقر دي فوكو في هذه المرحلة في باريس، فتغيرت حياته، حيث أصبح يؤمن بوجود الله وعاد إلى العبادة، فكان يقضي لياليه في الكنيسة. وقد كان للقس لابي أفولين (**l'abb - havelin**) الذي كان يعتبره دي فوكو الأب الروحي له، الأثر في ذلك. ويعتبر تقربه يوم 30 أكتوبر سنة 1886م في كنيسة سانت – أوغسطن (**saint - augustin**) تاريخا فاصلا غيّر مجرى حياته.[1]

كما عكف دي فوكو في هذه المرحلة على تحرير كتابه " **Reconnaissance et itinéraire au Maroc**" استطلاع المغرب وبيان خط سير الرحلة، الذي ضمنه تفاصيل رحلته في المغرب. صدر سنة 1888م فأكسبه شهرة[2].

انظم دي فوكو في سنة 1890م إلى إحدى المجموعات الدينية دام دوناج في لارداش وتسمى باسم الأخ ماري ألبريك، فأصبح يمارس الأعمال الشاقة لتطهير نفسه. فكان لذلك ولرحلته إلى أرض فلسطين وسوريا، الأثر في حياته الروحية. وقد استفاد دي فوكو أيضا من إقامته لمدة سنتين في روما في دراسة علم اللاهوت.

لقب دي فوكو في 9 جوان 1901م كاهنا من طرف مونتتي بحضور بوني[1]، وبعدها بشهور قليلة سافر إلى الجزائر، ليستقر في الصحراء الجزائرية لمدة 15 سنة أي من سنة 1901م إلى سنة 1916م وهي سنة قتله بأمر من الحركة السنوسية.

1 – René Bazin ، charles de Foucauld
2 - René Bazin ، p 38

ترك دي فوكو مؤلفات تنوعت بين كتب، وقاموس، ورسائل، وترجمات

1 – كتاب **Reconnaissance et itinéraire au Maroc** صدر سنة 1888م.

2 – كتاب نحو لغة تيفيناغ[2].

3 – قاموس فرنسي – طوارقي نشر في مجلدين، ويبلغ مجموع صفحاته 1450 صفحة.

4 – رسائله مع أصدقائه وأهله في فرنسا. حيث يعتبر ما تركه دي فوكو من رسائل خاصة مع من كانت بأيديهم زمام الأمور، أحد المصادر القوية لتأريخ السياسة الاستعمارية في الجنوب الجزائري(3).

5 – نصوص طوارقية مترجمة إلى اللغة الفرنسية تشكل مجلدين من الشعر والنثر الطوارقي. حيث ما تركه يعتبر كمرجع للأكاديمية البربرية في فرنسا(4).

إن المتتبع لحياة شارل دي فوكو خاصة في مرحلته الدراسية الأخيرة، يقف على مدى ابتعاد الرجل عن التعاليم الدينية التي نشأ عليها، ويتبين ذلك بصورة واضحة من خلال رسائله إلى أقربائه وأصدقائه مثلا: رسالة إلى صديق مؤرخة في 25 فيفري سنة 1893م والتي أشار فيها إلى أنه لم يبق أثر للإيمان في قلبه، وأنه ظل طوال 13 سنة لا يؤمن بوجود اللّه(5).

---

1 - René Bazin ، p 87

2 – لغة تخاطب الطوارق هي "تماشيق" وكتاباتها هي "تيفيناغ" تحتوي على نسبة كبيرة من حروف اللغة الفينيقية.

3 – د. احميدة عميراوي، من الملتقيات التاريخية الجزائرية، ص 172

4 – محمد الطاهر عزوي، الغزو الثقافي والفكري للعالم الإسلامي، دار الهدى. عين مليلة. الجزائر 1999، ص 99

5 - René Bazin ، charles de Foucauld p 12

فما هي الدوافع التي جعلت هذا الرجل يتحول من شخص عابث بالقيم الدينية المسيحية، إلى شخص يكرّس نفسه لخدمتها وسط ظروف صعبة جدّا، كظروف صحراء الجزائر؟ وما هي الأهداف التي حققتها من وراء ذلك كله؟

- **رحلاته في البلاد العربية:**

أولا: الرحلة إلى المغرب سنة 1883م إلى سنة 1884م

لقد بدأ دي فوكو في التحضير لرحلته إلى المغرب بدراسة الخرائط الجغرافية والمراجع التي تتضمن معلومات عن سكان المنطقة عاداتهم وتقاليدهم، لغاتهم ولهجاتهم وغيرها. وقد ساعده في ذلك أوسكار ماك كارتي (**oscar mac carthy**) الذي كان محافظ مكتبة قصر مصطفى باشا في تلك الفترة[1].

كما تعلم دي فوكو اللغتين العبرية والعربية، كون سكان المغرب من المسلمين وأقلية يهودية. لم يدخل دي فوكو المغرب في شخصيته المسيحية الفرنسية، بل تنكر في شخصية يهودي، تقول ماري آندري (**Marie éandr**): (بعد تفكير ومشورة اهتدى دي فوكو إلى حل وهو التنكر في شخصية يهودي. فاقتنى ملابس إسرائيلية: قميص أبيض بكمين طويلين وبرنس، عمامة سوداء، وخفين وقلنسوة حمراء (لرجل دين) وأطلق شعره.)

كما استعمل اللكنة اليهودية، وقلد اليهود في عاداتهم، وطباعهم وتقاليدهم الدينية، فصار وكأنه يهودي أصيل.[2]

وقد أشار دي فوكو في كتابه: **Reconnaissance et itinéraire au Maroc** إلى سبب اختيار التنكر في شخصية يهودي دون غيره. وذلك أن التنكر في شخصية مسلم أصعب من التنكر في شخصية يهودي، حتى لا يفتضح أمره، إضافة إلى أن اللباس اليهودي أكثر راحة، مما سمح له التحرك بحرية، وتسجيل المعلومات خفية دون إثارة الشكوك.

كما استغل دي فوكو في هذه الرحلة اليهود فزودوه بمعلومات دقيقة عن المنطقة، ما كان ليحصل عليها لو تنكر في شخصية مسلم. إضافة أن دليله في الرحلة كان يهوديا وهو الحاخام مردوخ[1] الذي كان خبيرا بأحوال المغرب سكانا وجغرافية، مقابل مبلغ مالي معتبر.

بداية الرحلة:

بدأت الرحلة إلى المغرب في 10 جوان سنة 1883م مع الدليل اليهودي، حيث انطلقا من الجزائر العاصمة إلى مدينة وهران، فأبحرا إلى طنجة بالمغرب. ومنها بدأت الرحلة مشيا في منطقة الريف، وهي عبارة عن سلسلة جبلية على ضفاف البحر الأبيض المتوسط، ومنها إلى فاس وتازة، ثم إلى الجنوب بالاتجاه إلى المحيط الأطلسي، وانتهى بهما المقام في أقادير وموقادور. بقي دي فوكو في موقادور شهرا كاملا، ثم عاد عن طريق الأطلس الصغير، حيث استغرقت عودته مدة شهرين كاملين قبل وصوله إلى وهران في 23 ماي 1884م.

لقد كان دي فوكو خلال هذه الرحلة يسجل خفية[2] ملاحظاته والمعلومات الكثيرة عن سكان القرى والمناطق التي مر بها، عن عاداتهم وتقاليدهم ولغاتهم

---

1 – تشير ماري آندري (Marie André) في كتابها: le pére de foucauld أن دي فوكو تعرف على مردوخ اليهودي في مدينة سطيف بالجزائر في رحلته الأولى سنة 1880م ص 18 في حين يشير ريني بازان (René Bazin) في كتابه charles de foucauld، أن دي فوكو تعرف على مردوخ عن طريق

ولهجاتهم وطباعهم وطرق تفكيرهم، خاصة أن هؤلاء كانوا مزيجا بين مسلمين ويهود وبين عرب وبربر وزنوج، وعن ثروات السكان وإمكاناتهم المادية والدفاعية، وثروات المنطقة من وثائق ومخطوطات. وحول الطبيعة المختلفة وجغرافية المناطق بتضاريسها المتنوعة، حيث كان يرسم مخططات طبوغرافية لها، وقد وصف دي فوكو لدقة هذه المخططات، وأهميتها لسلطات الاحتلال الفرنسي، برجل حرب ورسام ذي ذوق عال، بل فنان حقيقي.

لقد قطع دي فوكو خلال هذه الرحلة 2800 كلم، وقدم للسلطة الفرنسية معلومات قيمة عن قبائل المغرب وإمكانات دفاعهم عبر الممرات والمعابر المختلفة، وأيضا ملاحظات فلكية ومناخية وأرصاد جوية، استحق عليها التشجيع والتكريم في أفريل سنة 1885م، من قبل المؤسسة الجغرافية في باريس[1].

لقد قدم دي فوكو خدمة جليلة للسلطة الفرنسية في تلك الفترة، حيث كانت التقارير التي كتبها عن سكان المناطق المغربية التي كان يمر بها خلال رحلته، وخرائط الطرق والمعابر التي رسمها، دليلا اعتمد عليها جيش الاحتلال الفرنسي في غزوه المغرب سنة 1912م، مما يتضح جليا علاقته بالاحتلال وهدفه من رحلته، هذا الهدف الذي تبلور بصورة فعلية وفعالة في صحراء الجزائر أثناء استقراره بها لمدة طويلة.

الرحلة إلى بلاد الشام:

1 – الرحلة إلى أرض فلسطين[2]: سنة 1888م وسنة 1897م إلى سنة 1900م.

كانت زيارة دي فوكو إلى أرض فلسطين بهدف تطهير نفسه، استجاب لطلب قس كنيسة سانت–أوغسطين "saint-augustin" الذي ألح عليه كثيرا من أجل

1– Marie André ، le p. de Foucauld p 22.

2 – يعبر عنها الكتاب الأوربيون بالأرض المقدسة (La terre sainte).

زيارة مهد المسيح، فوصل مدينة بيت لحم مسقط رأس المسيح –عليه السلام– سنة 1888م أيام أعياد الميلاد، وقد مكث فيها طيلة ثلاثة أشهر، وكان يزور القدس وقرية جانت، ثم عاد إلى فرنسا.

لقد رجع دي فوكو مرة ثانية إلى أرض فلسطين سنة 1897م، حيث انطلق من إيطاليا مرورا بالإسكندرية إلى أن وصل إلى فلسطين، وقد زار عددا من مدنها مثل: بيت لحم، القدس، رام الله، واستقر في مدينة قريتجات. يتضح ذلك من خلال رسالته إلى أحد أقربائه وهو العقيد لويس دي فوكو "louis de foucauld" حيث يوضح فيها دي فوكو استقراره بمدينة قريت جات وأنه يمكن مراسلته على عنوانه بها[1].

وقد وجد دي فوكو عملا متواضعا في كنيسة، حيث كان الفضل في ذلك للأم الراهبة سانت ميشال "saint michel" وفي فناء الكنيسة اتخذ كوخا صغيرا من الخشب فجعله بيته وديره للعبادة، يقول دي فوكو في رسالته إلى أخته ماري "Marie" وزوجها بليك "Blic": (وصلت إلى هذا المكان دون أن تكون لي حرفة أو شهادة أو وثائق عدا جواز سفري، ومنذ سادس يوم على وصولي، لم أجد ما أكسب به معاشي فحسب بل ما أكسب به وفي أحسن الظروف التي طالما حلمت بها لسنين طويلة، وكأن هذا المكان كان ينتظرني، بالتأكيد إنه كان ينتظرني، فلا تحدث الأشياء بمحض الصدفة، بل بتقدير من الله: إنني خادم لمجتمع ديني فقير)[2].

وقد ظل يتنقل خلال إقامته في أرض فلسطين بين مدينتي قريت جات والقدس، إلى أن عاد إلى فرنسا في أوت سنة 1900م، أي أنه أقام ثلاث سنوات.

---

1 – René Bazin ، ch. Defoucauld ، p61.

2 – René Bazin ، p65.

2 – الرحلة إلى سوريا: سنة 1890م إلى سنة 1896م

اتجه دي فوكو سنة 1890 إلى سوريا، وانضم هناك إلى إحدى المجموعات الدينية المسيحية، وقد كان يقوم بالأعمال الشاقة والحقيرة لكي يطهر نفسه، وقد مكث طيلة عامين على هذه الحالة[1].

تقلد دي فوكو ضمن هذه المجموعة الدينية في سنة 1892م منصبا دينيا هاما، وقد ظل يمارس مهامه الدينية من خلاله إلى شهر سبتمبر سنة 1896، حيث غادر سوريا إلى فرنسا.

3 – الرحلة إلى الجزائر: سنة 1901م إلى سنة 1916م

لقد كانت أول زيارة لدي فوكو للجزائر سنة 1880م ضمن فرقة عسكرية فرنسية للخيالة أرسلتها مدرسة سومير "saumur"، حيث مكث عدة أسابيع بين مدينتي عنابة وسطيف، ثم رجع مرة ثانية سنة 1883م، حيث كانت الجزائر نقطة انطلاق وعودة في رحلته إلى المغرب، وفي سبتمبر سنة 1885م عاد إلى الجزائر مرة ثالثة ومكث فيها عدة أسابيع زار خلالها مدنا عدة منها: وهران والأغواط وغرداية وورقلة وتقرت، ثم مدينة قابس بتونس وعاد منها إلى فرنسا في 23 جانفي سنة 1886م[2].

العودة إلى الجزائر سنة 1901م:

نزل دي فوكو بالجزائر العاصمة عند الآباء البيض، ثم اتجه إلى وهران وإلى عين الصفراء عن طريق القطار، ثم أكمل طريقه ممتطيا مع مجموعة من الجنود الفرنسيين الخيول، وقد وصلوا إلى بني عباس في 28 أكتوبر سنة 1901م.

1- Marie André ، p. de Foucauld p 31.

2- René Bazin ، ch. De foucauld ، p28.

قرر دي فوكو الاستقرار في بني عباس لعدم وجود رجل دين مسيحي، يقوم بالطقوس الدينية وسط الجنود، وقد كان جيش الاحتلال الفرنسي قبل ذلك، قد أقام مركزا للجنود وحصنا للمراقبة فقرر دي فوكو الإقامة قريبا منه، وذلك بعد أن حصل على إذن من الحاكم العام الفرنسي، وإذن من الآباء البيض -بعثات الكردينال لافجري- حيث كانت تلك المنطقة تحت وصايتهم وقد كان الأب الروحي لها بازان"Mgr.Bazin"[1].

وقد وافق إذن الآباء البيض لدي فوكو بالإقامة في بني عباس، مشروع ما كان يهدف إلى تطبيقه الكاردينال لافجري، الذي صرح بأن الجزائر أصبحت لنا أو بتعبير أصح أصبحت ملكا للعالم المسيحي. وبأن فرنسا أصبحت الآن حارس المسيحية الأول بإفريقيا. وهذا التصريح ليس غريبا لأن لافجري عندما أنشأ مؤسسة الآباء والأخوات البيض، كان يهدف إلى التنصير باسم أوروبا لا باسم فرنسا فقط.

الإقامة في بني عباس سنة 1901م إلى سنة 1905م

أقام دي فوكو في بني عباس ديرا للعبادة بمساعدة المجندين الجزائريين، وقد خصص فيه حجرات صغيرة لاستقبال الضيوف وعلاج المرضى، كما جعل فناءه حديقة صغيرة زرع فيها أنواعا من الخضر والفواكه وشجيرات النخيل الصغيرة، يصفه دي فوكو في إحدى رسائله إلى صديق بقوله: (إن السقف أفقي، بروافد النخيل الكبيرة الغليظة، مغطاة بجريد النخيل، إنه بسيط ويوحي بالفقر، غير أنه أليف وجميل، ولكي تكون الروافد ثابتة، أسندت في المنتصف بأربعة من جذوع النخيل بشكل عمودي، في بساطتها تثبت البناء جيدا وتؤطر الهيكل، حيث يوضع الإنجيل في زاوية أين يعلق قنديل زيتي ينير ليالي ويضفي نورا مشعا حول الهيكل، وقد علقت في السقف قبة بشكل خيمة، بقماش نسيجي كبير أخضر مشمع، ليلقي الهيكل وسلمه الصغير من المطر)[2].

1- Marie André ، p. de Foucauld p 45.

2- René Bazin ، ch. De foucauld ، p96.

لقد كانت لدى فوكو في هذه المنطقة صداقات حميمة مع القائد العسكري العام لهذه المنطقة، وهو دي سيسبيال "du susbielle" الذي كان كثيرا ما يدعوه إلى مائدته[1]، ومع الجنود الفرنسيين الذين أقبل الكثير منهم على هذا الدير، يتبركون ويصلون ويستشفون ويتقوتون.

لقد كان لهذا المعبد الديني بزعامة دي فوكو أثر فاعل في تغيير الحياة الخاصة وسط الجنود الفرنسيين، بل في تغيير الحياة الاجتماعية لهذه المنطقة حيث كان حلقة وصل بين السلطة العسكرية الفرنسية والجزائريين بالصحراء وعاملا مساعدا في توطيد العلاقة بين المدنية الأوروبية والجزائريين[2].

باشر دي فوكو مهامه التبشيرية في بني عباس، حيث تجلت في تقديم الخدمات الطبية للسكان خاصة أن المنطقة كانت نائية، وفي تعليمهم ما كانوا يجهلونه، حيث لم تمر أربعة أشهر على إقامته في بني عباس حتى وقف على معظم النواحي المادية والمعنوية والمشاكل التي كان يعاني منها الأهالي[3]، ربما هذه المشاكل والظروف الصعبة للسكان، هي التي ساعدت دي فوكو في اختراقهم وتحقيق ما سطره من أهداف.

تمكن دي فوكو أثناء إقامته في بني عباس من شراء بعض العبيد، فعمّدهم وجعل بعضهم خدما له، وقد كان أول شخص عمّده في بني عباس هو طفل اسمه عبد المسيح، عمره ثلاث سنوات ونصف، وقد كان ذلك في 12 جويلية سنة

1- Marie André ، p. de Foucauld p 49.

2 – د أحميدة عميراوي، من الملتقيات التاريخية الجزائرية، ص-ص 169-170.

3- René Bazin ، p107.

1902م[1]، كما اشترى في 15 أكتوبر من سنة 1902م عبدا اسمه بول "paul" فجعله خادما له، وآخر في 21 جانفي سنة 1903م فتسمى باسم بيار "pierre"[2].

لقد كان لتعيين هنري لابرين "henri la perrine" قائدا أعلى على منطقة واحات الصحراء الجزائرية ولزيارته لصديقه دي فوكو أثر في تحقيق حلم دي فوكو وهو التوغل في الجنوب، فكان له ذلك سنة 1904م حيث دامت الرحلة ثمانية (8) أشهر برفقة خادمه "paul" وصديقه لابرين"la perrine" وجنود فرنسيين الذين جابوا قبائل الصحراء المختلفة، وقد ترك لابرين"la perrine" صديقه دي فوكو عند قبائل الطوارق في مدينة عين صالح لمدة ثلاثة أشهر.

بدأ دي فوكو في هذه الفترة في عين صالح بين قبائل الطوارق عمله كمستكشف، مثل ما فعل سابقا في المغرب حيث يسجل المعلومات عن الآهالي ويرسم المخططات ويتعلم اللهجة المحلية لغة تخاطب الطوارق "تماشيق" "tamachecq" يقول دي فوكو: (إن سكان المنطقة كسكان المغرب، يتحدثون لهجتهم المحلية البربرية أكثر من تحدثهم باللغة العربية، هذه اللهجة هي اللغة القديمة لشمال إفريقيا... لقد تعلمتها سابقا ونسيتها، وإنني بصدد تعلمها لأتمكن من التحدث مع الجميع)[3].

انتقل دي فوكو إلى غرداية أواخر سنة 1904م إلى جانفي سنة 1905م حيث مكث عدة أسابيع عند الآباء البيض. قد يكون تباحث معهم حول مشروع التنصير لسكان الصحراء جنوبا، خاصة أنه قد التحق به إلى بني عباس قسان الأمر الذي مكن هؤلاء الثلاثة من مضاعفة النشاط المسيحي في الصحراء الجنوبية[4].

---

1 - Marie André ، p50.

2 - René Bazin ، p115.

3 - René Bazin ، p146.

4 - René Bazin ، p147 et Marie André ، p5

وقد عاد دي فوكو إلى الساورة حيث واصل دراسته للهجة المحلية للطوارق "تماشيق" وترجمة الأناجيل ليتيسر لهم، ثم عاد إلى بني عباس مرة ثانية ليزاول مهامه السمابقة، بعد أن قطع معظم الصحراء، إنفار، أولوف، أدرار، غرداية، تيميمون، وغيرها.

وقد كتب دي فوكو لصديق له في 3 جويلية سنة 1904م يصف له رحلته بين قبائل الصحراء مع صديقه هنري لابرين "Henri la perrine" وما كان يفعله خلالها بقوله: (إننا نتنقل من نبع إلى نبع، بين مناطق الرعي التي كثيرا ما يتردد عليها البدو، فنقيم بينهم لعدة أيام...

أيامي مشغولة بدراسة لغة هذه المنطقة اللغة البربرية الأصيلة وبترجمات الأناجيل إلى هذه اللغة)[1].

وقد ساعده في بحوثه اللغوية وتعلم التماشيق الدكتور دُوأُتفيل "Dhauteville" الذي عاش في الأهقار وخاصة في تمنراست لمدة، وتعلم هو بدوره التماشيق في ستة أشهر.

الإقامة في تمنراست سنة 1905م إلى سنة 1916م:

قرر دي فوكو بعد مراسلات عديدة من صديقه هنري لابرين " Henri la perrine" السفر في جوان سنة 1905 إلى قلب الصحراء تمنراست، حيث انطلق إليها برفقة خادمه بول "paul" والقائد العسكري دينوكس "Dinaux" وجنود فرنسيين، وعند وصولهم استقبلهم شيخ قبيلة الطوارق يدعى موسى أق مستان[2] الذي كان يعرف دي فوكو من زيارته الأولى إلى المنطقة مع صديقه لابرين "laperrine" ثم واصل دي فوكو رحلته مع خادمه ومجموعة من الطوارق والسيد إتيونوت "Etionnot" مفتش البريد الذي كان آنذاك مكلفا بإنجاز مشروع بناء مركز بريدي تلغرافي في صحراء الجزائر وتحديدا في تمنراست.

---

1 - René Bazin ، p148.

2 – كانت تربطه علاقات حميمية بدي فوكو حتى أنه زار فرنسا سنة 1908م، وقد استقبلته عائلة دي فوكو.

وقد وصل دي فوكو تمنراست في شهر أوت من سنة 1905م، حيث اتخذها مستقرا له إلى سنة قتله سنة 1916م.

حياة دي فوكو في تمنراست:

أقام دي فوكو في تمنراست ديرا متعدد الوظائف للعبادة واستقبال الضيوف وعلاج المرضى، وقد ساعدته معرفته للهجة المحلية للمنطقة في تعاملاته مع السكان، لاسيما شيخهم موسى الذي كان كثير التردد على دي فوكو.

لقد سعى دي فوكو في المرحلة الأولى إلى اختراق حياة الطوارق نساء ورجالا وأطفالا، حيث بدأ يعلمهم أشياء كانوا يجهلونها بحكم تواجدهم في منطقة نائية، وهو القادم من فرنسا، كالخياطة والنسيج وبناء المنازل والزراعة وغيرها، وذلك لكسب ثقتهم وحبهم، ليبدأ المرحلة الثانية وهي تنصيرهم وتطويعهم ليتقبلوا الاحتلال الفرنسي.

كما بدأ دي فوكو في هذه المرحلة التأليف وكان أول ما قام به هو وضع قاموس فرنسي –تماشيقي (طوارقي)، يكون عونا للمبشرين الأوروبيين في هذه المنطقة، كما قام بجمع أشعار الطوارق ونثرهم وترجمتها إلى اللغة الفرنسية[1].

لم يكن دي فوكو مقيما دائما في تمنراست، بل كان كثير التنقل والتجول عبر المناطق الصحراوية المختلفة، وقد صادفت عودته من تجواله عبر تلك المناطق سنة 1907م، مجاعة حلت بتمنراست، فاستغل الوضع لكسب ود السكان، فكان يوزع بنفسه ما كان عنده من قمح وشعير وتمر على النساء والأطفال، وبالفعل أصبح دي فوكو يحظى بحب الناس واحترامهم له، لبساطتهم وسذاجتهم، وقد برز ذلك عندما سقط طريح الفراش فاعتنوا به لعدة أسابيع إلى أن تماثل للشفاء، فقرر الذهاب إلى إفريقيا الجنوبية ثم عاد إلى فرنسا لزيارة أهله ورجع إلى صحراء الجزائر.

---

1 - Marie André ، p-p62 et 65.

تميزت مرحلة سنة 1909م وسنة 1910م بوجود الطبيب روبار آرسن الذي كانت تربطه بدي فوكو علاقة طيبة وقد أقام الطبيب في الأهقار لعدة شهور حيث كان يزاول مهنتين: الأولى مهمته كطبيب وهي الاعتناء بالجانب الصحي للجنود وأحيانا الطوارق والثانية وهي محاولة كسب الطوارق وتدجينهم تطبيقا لمخطط لابرين "la perrine"[1] وقد أمر الطبيب أن يكون تحت إمرة الأب دي فوكو الذي كان الجميع حتى الطوارق أنفسهم لا يقدمون على أمر إلا بالرجوع إليه، مما يدل على أثر دي فوكو في اختراق الأهالي، الأمر الذي سهل عليه أداء مهامه دون أدنى اعتراض، وسهل للفرنسيين التوسع في الصحراء دون مقاومة فقد كان السكان يحترمون الفرنسيين بما فيهم العسكريين مراعاة له.

أثناء هذه المرحلة قرر دي فوكو الانتقال إلى أعالي الأهقار على بعد 60 كلم من تمنراست، حيث بنى ديرا على إحدى القمم يسمى "لسكريم" "L'asckrem" يبلغ ارتفاعه 2700م وقد كان يترل إلى الطوارق في خيمهم ويتصل بهم، كما كانوا هم يصعدون إليه، وفي فصل الشتاء عندما كان الطوارق يتجمعون في تمنراست يترل دي فوكو فيعيش معهم حتى ينقضي الفصل، يقول دي فوكو: (إنني أهيئ لحركة فعالة في المجال الروحي، ببنائي على بعد 60 كلم من هنا أي تمنراست، في قلب أعلى نقطة من جبال الأهقار وبين المناطق التي تقام أو تنصب فيها الخيم الكثيرة، ديرا يتسع لشخصين سأتوسط بذلك السكان وإنني أنوي في العام القادم أن أقسم وقتي بينه وبين دير تمنراست)[2].

رجع دي فوكو سنة 1913م إلى فرنسا مصطحبا معه شابا من الطوارق اسمه أوكسام، وقد كتب قبلها في 11 ديسمبر سنة 1912م لصديقه فيتز جيمس "Le duc fitz james" يحدثه عن القيام بهذه الرحلة مستقبلا في شهر ماي سنة 1913م مع شاب تارقي، وبيّن له الهدف من هذه الزيارة، وهدفه من تواجده في

1 - احميدة عميراوي، من الملتقيات، المرجع السابق، ص171.

2- René Bazin ، p184.

صحراء الجزائر وهو تحضير الأهالي، فالبربر ينصاعون بسهولة على عكس العرب الذين نحتاج معهم لمجهودات كبيرة حتى نحقق هدفنا والهدف الثاني هو تنصير كل المستعمرات الفرنسية، ويكون ذلك بتقديم المثل العليا للدين المسيحي والاهتمام بالأهالي وهذا التارقي عيّنة من هؤلاء[1].

بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى 1941م، فكر دي فوكو في العودة إلى فرنسا غير أنه آثر البقاء في تمنراست لمواصلة مهامه التبشيرية والاستعمارية، وتعتبر الرسائل[2] التي دارت بينه وبين صديق له في هذه الفترة ديسمبر سنة 1914 إلى نوفمبر سنة 1916م مصادر تأريخية لهذه المرحلة في الجوانب السياسية والعسكرية في الجنوب الجزائري.

كانت السنوسية في هذه الفترة ذات نفوذ واسع على الحدود الليبية-الجزائرية بمناصرة بعض القبائل التارقية مثل أزجير، فكان هجوم السنوسية عام 1916م قويا ضد القوات الفرنسية المتمركزة في جانت[3] وانتهت الهجمات بقتل دي فوكو في 1 ديسمبر 1916م ودفن هناك وكتب على ضريحه:

Le père Charles de jésus vicomte de Foucauld.

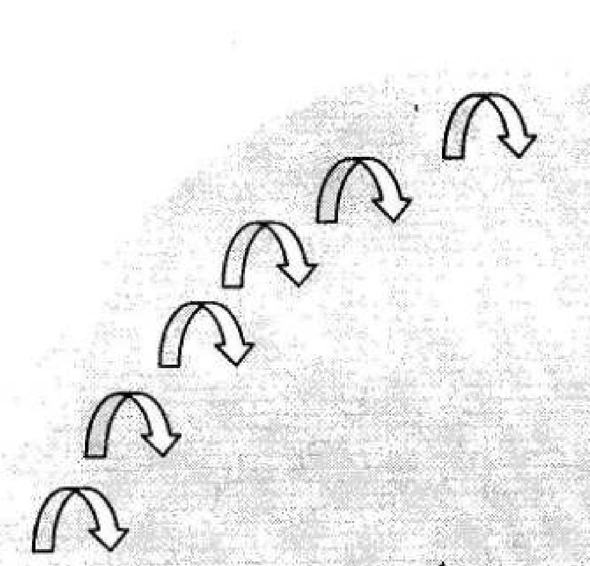
Massacré à Tamarasset le 1 décembre 1916.

وخلاصة القول، فشارل دي فوكو يعتبر من المنصرين الفرنسيين الذين اضطلعوا بدور كبير في خدمة الاحتلال الأوروبي في البلاد العربية، لاسيما الاحتلال الفرنسي في الجزائر وتحديدا في صحرائها، حيث عدّه المؤرخون من الطلائع التي مهدت لاحتلال الصحراء ونشر المسيحية في إفريقيا.

---

1 - René Bazin ، p195.

2 – بفضل جهود دي فوكو تأسس مركز بريدي تلغرافي فصار البريد يصل ما بين تمنراست وباريس خلال 22 يوما، وفي سنة 1908م تأسس مركز آخر على بعد كلم عن تمنراست.



الفصل الخامس

سياسة التوسع الفرنسي

في

الصحراء الجزائرية

(1916 - 1844)

تمهيد:

من خلال ما سبق ذكره في الفصول السابقة يمكن رصد جملة من النتائج المترتبة عن سياسة التوسع الفرنسي في الصحراء الجزائرية؛ وبحكم تنوع هذه السياسة وشموليتها لمختلف الميادين فكذلك سترد هذه النتائج متنوعة وشاملة لمختلف هذه الميادين، ولقد اعتمدت في تحديد هذه النتائج على المنهج الإحصائي؛ وهي نتائج مرتبة حسب ميادينها على النحو الآتي:

01- النتائج العسكرية والمادية:

يمكن تناولها من زاويتين رئيسيتين هما: منها المتعلقة باحتلال المدن والواحات الصحراوية، ومنها المتعلقة بعدد القتلى والجرحى من الطرفين الفرنسي والجزائري؛ ولتسهيل قراءة هذه النتائج ضمنتُها في جدولين رئيسيين كما يلي:

1 - الجدول الأول[1]

تواريخ احتلال بعض المدن والواحات الصحراوية[2]

المدينة / الواحة	تاريخ احتلالها	ملاحظات
بسكرة	1844	
واحة الزعاطشة	1849	تم تدميرها عن آخرها
بوسعادة	مع مطلع سنة 1850	تم احتلالها عقب ثورة الزعاطشة انتقاما من أهلها
المنيعة	1891	بالاقتحام العسكري
الأبيض سيدي الشيخ، وجنان بورزق	1895	لم تراع قوات الاحتلال حرمة الأماكن المقدسة المتواجدة بها
تيميمون	12 ماي 1890	
قصور زورا ودلدول	12 ماي 1890	
إيغلي	05 أفريل 1900	
تيت	23 مارس 1900	بعد معركة شديدة البأس
أقابلي – تظم مجموعة قرى-	25 مارس 1900	
تمنراست	1904	احتلالها شكل مركزا رئيسيا
عين صالح	1809	
إليزي	1908	

---

1 - ملاحظة: لم نراع في هذا الجدول الترتيب الزمني لعملية الاحتلال لأنها شملت المناطق الصحراوية الثلاث – الصحراء الجنوبية الغربية والصحراء الجنوبية الوسطى والصحراء الجنوبية الشرقية – من الحدود المغربية غربا إلى الحدود الليبية والتونسية شرقا والإفريقية جنوبا، كما أن الجدول لا يشمل بصورة حقيقية كل المدن الجنوبية والواحات الصحراوية التي تم احتلالها.

2 – بشأن المواقع الجغرافية لهذه المدن والواحات يراجع: الأطلس العالمي، المعهد التربوي الوطني الجزائري.

جانت	1909	
كولمب بشار	11 مارس 1904	
الأغواط	1852	احتلالها كان شبيها ببسكرة
أدرار	10 فيفري 1901	
الساورة	1901	
واحة تابلبالا	1910	
تقرت وواد سوف	1854 -1855	احتلالها كان مهم جدا للعدو

02- الجدول الثاني:[1]

بعض الخسائر البشرية – الفرنسية والجزائرية –

تاريخ وقوعها	الطرف الجزائري	الطرف الفرنسي
أثناء وبعد حصار واحة الزعاطشة 1848 – 1849	300 شهيد، وأكثر من 1000 قتيل ماتوا تحت الأنقاض	10 ضباط قتلى، 60 ضابط جريح، و 156 جندي قتيل و 740 جريحا.
سبتمبر 1849	أكثر من 200 شهيد وعلى رأسهم القائد عبد الحفيظ الخنقي	لم نتمكن من تحديد خسائره
3 جانفي 1850	عشرات القتلى والجرحى	08 قتلى و 30 جريحا
أكتوبر 1853	استشهاد الشريف عمار عمر وبمعية 500 شهيدا	عشرات الجرحى
28 نوفمبر 1854	استشهاد أكثر من 500 جزائري	عدد هائل من القتلى والجرحى يتراوح بين 50- 100 فرنسيا.

1- ملاحظة: ليس ما تضمنه الجدول يعكس العدد الحقيقي للخسائر البشرية للطرفين الفرنسي والجزائري، وإنما هو جزء بسيط جدا من هذه الخسائر لأن هناك العديد من الخسائر وخاصة من الجزائريين لم يتم الكشف عنها، وبالنسبة للفرنسيين فهي تحتمل تارة الزيادة وتارة النقصان وهذا هو حال الإحصائيات المتعلقة بالحروب والمعارك العسكرية.

28 ديسمبر 1899	600 شهيد جزائري	ما بين 100-200 قتيل فرنسي
جانفي 1900	....	عشرات القتلى والأسرى
19 مارس 1900	300 شهيد جزائري	100 قتيل فرنسي
1900	عدد قليل من الخسائر	مقتل الملازم "فلاترس" والملازم الأول "ديانوس" وبمعية 51 من رفقائهما وحوالي 78 جنديا
30 أوت 1859	....	350 قتيل وعشرات الجرحى، ضد الجنرال ما "رتينبري"
19 ماي 1881	عدد محدود من الجرحى	قتل ضابط وأربعة من حرسه الشخصي في المولاق.
19-25 مارس 1881	استشهاد أكثر من 400 شهيد.	37 قتيلا و 16 جريح منهم أحد الضباط و 47 مفقود مع اختفاء أحد القادة وهو "إنوسين"
07 ماي 1902	أكثر من 70 شهيد	عدة جرحى منهم الضابط "لابيرين" و "دوفوكو"
29 مارس 1903	....	08 قتلى منهم العريف "فورييه لوفي" و 06 جرحى
مارس 1908	02 قتلى و 15 جريح	عشرات القتلى منهم الملازم "رونيه"

ملاحظة وتعليق حول الجدولين:

01 الجدول الأول:

1-1 - الملاحظات

1. التدرج في عملية التوسع
2. عملية التوسع كانت بطيئة جدا مقارنة بشمال البلاد
3. احتلال أهم المدن والواحات الاستراتيجية.
4. شمولية عملية التوسع من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق.
5. عدم مراعاة حرمة الأماكن المقدسة والعمل على تدنيسها كنسف قبة سيدي الشيخ.

2-1 – التعليل: نعلل كل ملاحظة بما يلي:

1. نظرا للحذر الذي كان مُصاحبا لعملية التوسع.
2. نظرا للمقاومة التي واجهتها قوات الاحتلال من سكان الجنوب.
3. قصد السيطرة على منابع المياه والمدن التجارية وطرق المواصلات وبالتالي التحكم في موارد الرزق التي يعيش منها سكان الجنوب.
4. قصد القضاء على أي أمل للمقاومة الشعبية المسلحة في مختلف الجهات وللحيلولة دون إحداث نوع من التعاون المشترك.
5. طبيعة التشكيلة العسكرية التي هي في معظمها من الجنود اللقطاء والمتشردين فظلا عن الجنود المرتزقة.

02– الجدول الثاني:

1.2- الملاحظات:

– كثرة الخسائر من الجانبين بين قتلى وجرحى. واستشهاد رموز المقاومة من مرابطين وأشراف. والعديد من القادة الفرنسيين ذو رتب مختلفة.

– كثرة عدد الجزائريين الذين استشهدوا والمقدر عددهم حسب الجدول السابق بـــ: 3272 شهيدا. وعدد لا يكاد يُحصى من الجرحى. هذا فضلا عن ضحايا العديد من الانتفاضات والثورات التي لم يتسن لنا المقام لذكرها وخير مثال على ذلك هو الخسائر البشرية التي ترتبت عن ثورة الأوراس الواقعة ضمن دائرة باتنة العسكرية[1]. وهو عدد هائل مقارنة بالفرنسيين الذين قتلوا في ساحات المعارك والمقدر عددهم بـــ: 1626 قتيلا و 252 جريحا دون النظر إلى عدد المفقودين في الصحراء الجزائرية.

2.2- التعليل: نعلل الملاحظتين السابقتين بما يلي:

– عادة المعارك العسكرية تستهدف رموزها الذين خططوا لها نظرا لوجودهم في الصفوف الأمامية للمعارك قصد تحميس الجنود للقتال.

– غياب التكافؤ التام بين القوات الفرنسية والقوات الجزائرية عددا وعدة وتنظيما وتخطيطا، خاصة إذا علمنا بأن القوات الفرنسية استخدمت

1- خضعت المنطقة الواقعة جنوب قسنطينة والتي تمثل بوابة الصحراء الجزائرية منذ 22 جوان 1844 وإلى غاية 1847 للقيادة العسكرية العليا ثم تحولت إلى شعبة عسكرية من سنة 1847 إلى سنة 1905، وضمن الشعبة استحدثت الدوائر المختلفة، دائرة باتنة من 1846 إلى 1886 ودائرة خنشلة منذ 1873 بعدما كانت مركزا عسكريا يتبع دائرة باتنة. وقد ألغيت دائرة خنشلة في نوفمبر 1912 أما دائرة بسكرة العسكرية فقد تأسست في سنة 1847 وبقيت إلى سنة 1902، حيث ألحقت أجزاء منها بمناطق الجنوب، وأجزاء أخرى بدائرة خنشلة بموجب مرسوم أوت 1905. يراجع: ثورة الأوراس 1879، ص، 33. وبخصوص الخسائر البشرية لهذه الأحداث يراجع ص، 50 من نفس المرجع.

العديد من الأسلحة المفقودة لدى الثوار والتي من بينها المدافع. والملاحظ في الأخير هو ذلك التفوق الفرنسي الكبير على عناصر المقاومة الجزائرية، رغم تشتت القوات الفرنسية في قارة إفريقيا وآسيا ولكن ذلك لم يمنعها من تحقيق العديد من الانتصارات على الجزائريين.

02- النتائج الاقتصادية:

قبل التطرق إلى هذه النتائج أود الإشارة ولو قليلا إلى الوضع الاقتصادي الذي كان سائدا في إحدى أهم المناطق الصحراوية؛ فآندري نوشي يذكر في أحد مؤلفاته وصفا رائعا لأهل القصور هذا نصه ((... ولقد كان القصوريون يتعهدون بمهمة السواقي الموزعة انطلاقا من الأودية أو العيون ويفلحون قطع الأرض البدوية فيغرسونها أشجارا مثمرة مختلفة على السهول الكبرى ونخيلا وأشجارا مثمرة في جنوب الأطلس... وأما في الواحات الشمالية فكان المناخ يسمح لهم بالزراعة البعلية للشعير في أرض العروش))[1] ومن حيث الصناعات التي كانت قائمة بالجنوب الجزائري يذكر لنا نوشي أيضا ما يلي ((... فلقد كانت الصناعات التقليدية منتشرة في القصور في شوارع وأحياء كثيرة كالحدادين وباعة الأسلحة من البرازنة وتجار المصوغ من يهود الأبيض والصباغين وباعة الأسلحة والحدادين والنجارين من شلالة في بوسعادة ... وفي سنة 1890 كان بالميزاب 6000 من صُناع الزرابي ..))[2].

أما من حيث العلاقات التجارية فهي الأخرى كانت مزدهرة جدا وهنا يشير الدكتور يحي بوعزيز في إحدى دراساته[3] إلى ذلك النشاط التجاري الذي يشبه قطعة فسيفسائية رائعة جدا وذلك من خلال تعدد الطرق التجارية

1- آندري، نوشي وآخرون: المرجع السابق، ص، 382.

2- المرجع نفسه، ص، 404.

3- يحيى بوعزيز، مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، ص-ص، 111- 120.

الرئيسية التي تفوق في عددها 15 طريقا، تجوب الصحراء الجزائرية وجزء كبير من الصحراء الإفريقية، والشيء الملفت للانتباه هو تلك السلع والبضائع النادرة والنفيسة [1]ويخضع هذا النشاط التجاري إلى تنظيم دقيق جدا؛ كما أنه يدر أرباحا طائلة على أصحابه. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو هل بقيت هذه الأهمية الحيوية للصحراء الجزائرية والإفريقية عقب التوسع الفرنسي على حالها أم طرأت عليها بعض التغيرات؟.

إن سياسة التوسع الفرنسي في الجنوب الجزائري كانت نقمة وكارثة حقيقية على الاقتصاد الصحراوي الجزائري والإفريقي؛ ويتجلى لنا ذلك من خلال النقاط الآتية:

– استنزاف الثروات الباطنية؛ لأن المستعمرين أخذوا على عاتقهم مهام التنقيب عن المياه عن طريق حفر الآبار الارتوازية في العديد من المناطق الصحراوية، ومن بين هذه المناطق؛ منطقة واد ريغ والزيبان التي ارتفعت بهما كميات المياه المُستخرجة من 53000 لترا في الدقيقة الواحدة سنة 1856 إلى 200000 لتر سنة 1890 وارتفعت إلى حوالي 278000 لترا في سنة 1924. وكل هذه المياه استخرجت من حيز جغرافي ضيق جدا لا يكاد يساوي 10 % من المساحة التي كانت مُخصصة سابقا لها؛ وهو ما ترتب عنه من استنـزاف للمذخرات المائية الباطنية؛ وعليه فإن كمية المياه قد تراجعت في الآبار الارتوازية إلى 315000 لترا؛ أي بنسبة مئوية تفوق 10%[2].

1- الأقمشة المختلفة والسروج والألجمة والمهامز للأحصنة والبغال والجمال، والأدوات الحديدية كالقدور والأمواس والسكاكين والإبر والأواني المنزلية وأدوات الزينة الجلدية والنحاس الأصفر والنحاس العادي والكبريت والكتب والمخطوطات والورق والأقلام والخضر الجافة والزيوت والشحوم والأغنام والأصواف والروائح العطرية والأدوية والأعشاب والبهارات ومواد الصناعة والعطور والشاي والسكر. ..الخ. ، يُنظر يحي بوعزيز، مع تاريخ الجزائر، ص – ص 116-117.

2- آندري نوشي وآخرون: المرجع السابق، ص، 401.

– تنمية الفلاحة المضاربية التي تحصلت على فوائدها الشركات الرأسمالية الإمبريالية الاستعمارية منذ سنة 1880، كما استفاد أعوان الإدارة من بعض المسلمين أنفسهم الذين كونوا شبه طبقة إقطاعية أرستقراطية وسطى؛ مكنتهم من الحصول على العديد من الامتيازات وعلى بعض المناصب الحقيرة، مقابل تأدية الولاء والطاعة للفرنسيين.

– الاستغلال غير العقلاني للثروات المعدنية الباطنية مثل منجم الفحم الحجري المتواجد بمنطقة القنادسة ببشار، والذي بدأ العمل به منذ سنة 1906 وبلغ إنتاجه حوالي 2000 طنا، وهي كمية كانت قابلة للزيادة وقت الحاجة – خاصة أثناء الحرب العالمية الأولى 1914-1918.

– القضاء على تجارة القوافل السابقة الذكر وذلك بإنشاء العديد من الطرق بجانب الخطوط الحديدية التي تحدثنا عنها سابقا؛ بحيث أصبح يتم نقل البضائع والسلع الصحراوية عن طريق العربات والشاحنات التي كانت تنتقل عبرها[1]. وهو ما أدى في الأخير إلى ضعف التبادل التجاري بين الشمال والجنوب، كما أن العديد من المنتوجات أصبحت غير رائجة نظرا للمنافسة التي واجهتها من السلع الأوربية المستوردة. وأمام هذا الاحتكار الفرنسي للسلع والبضائع الصحراوية وخاصة في الجنوب الغربي الجزائري لجأ[2] العديد من التجار إلى ممارسة التجارة الخفية – التهريب – الشيء الذي دفع بالفرنسيين إلى سن عملية الحجز الاقتصادي للبضائع وبيعها في المزاد العلني؛ الأمر الذي ضاعف من أرباحها.

1- المرجع نفسه، ص. 400.

2- **بينما الجنوب الشرقي الجزائري وخاصة منطقة الهقار حافظ نوعا ما على طرقه التجارية ومكانته الاقتصادية، نظرا لقبول التوارق الاتفاق مع السلطات الفرنسية حول عدم المساس بمصالحهم – اتفاقية الفرنسيين مع الشيخ ابخنوخن – وكذلك الحال مع بني ميزاب في الوسط الصحراوي. إلا أن هذه الاتفاقيات لم تُعمر طويلا.**

- تراجع تجارة القوافل التي بدأت تتلاشى شيئا فشيئا ابتداء من سنة 1890؛ وتراجع تسويق البضائع والسلع السابقة الذكر، وخاصة إنتاج التمور التي سُدت كل الطرق أمامها وخاصة نحو السودان.[1] كما أن الصناعات التقليدية نفسها بدأت تفقد في حرفييها، فعلى سبيل المثال تراجع عدد صناع الزرابي في منطقة الميزاب من 6000 صانعا إلى حوالي 1500 صانع في سنة 1950.[2]

- تراجع الاقتصاد الريفي المنتشر في الواحات الصحراوية، وخاصة في منطقة واد ريغ التي بلغ فيها الاستثمار الأجنبي في غرس أشجار النخيل نسبة كبيرة؛ ونظرا لغياب الاستغلال غير العقلاني للمياه الجوفية؛ تراجعت كمية المياه الموجودة في الآبار الارتوازية للفلاحين الجزائريين؛ وبالتالي القضاء التدريجي على غابات النخيل التابعة لهم. كما أنهم كانوا عاجزين عن القيام بحفر أبار أخرى أو إحياء أراضيهم التي أصبحت بورا لأنها لم تُفرنس.[3]

- القضاء على الثروة الحيوانية التي تراجعت بنسبة 80 % بسبب نظام العشابة التي فرضته السلطة الفرنسية على مربي المواشي، هذا فضلا عن سنوات القحط والجفاف والأوبئة الدورية التي كانت تعصف بالمنطقة بين الحين والآخر؛ ومع عدم تجديد هذه الثروة تلاشت هي الأخرى بشكل تدريجي. وعلى سبيل المثال فبعض التقارير تُفيد بأن أولاد داود الذين شملتهم ثورة الأوراس لم يبق لهم سوى النصف من مواشيهم قبل اندلاع الثورة، وعلى اثر اندلاعها سُلبت منهم المواشي المتبقية عندهم عن آخرها.[4]

هذا فضلا عن عمليات السلب والنهب التي كان يقوم بها القياد وطوابير الجيش، الفرنسي فطابور خنشلة كان قد استولى على 2236 رأسا بين بقر وشياه

1- جمال قنان، المرجع السابق، ص 150.

2- آندري نوشي، المرجع السابق، ص 404.

3- المرجع نفسه، ص، 403.

4- زوزو، عبد الحميد: ثورة الأوراس، المرجع السابق، ص، 52.

وأفراس هي لأولاد داود بن سليمان، وكان ما نُهب عن طريق طابور بسكرة بين القايد سي محمد بن الحاج بن قانة والجيش الفرنسي 5500 شاة، ومائة بقرة أو عجل و 40 بغلا. وهي كذلك لأولاد داود بن سليمان أما طابور "فورجمول" فقد استولى على 5000 رأس هي كلها لأولاد داود، عدا ما أخذه القائد سي الهاشمي لحسابه الخاص.(1) ولتثمين عملية تراجع الثروة الحيوانية بهذه المنطقة أُدرج الجدول الآتي:(2)

السنة	غنم	خمير	الصوف	القمح	تمر وفواكه
1875	13250	230	3100ق	2380ق	8500ق
1881	606	98	95ق	1250ق	2150ق

السنة	جياد	البغال	البقر	الماعز
1875	82	1163	198	32080
1881	11	283	606	3673

- إرهاق كاهل السكان بالضرائب والغرامات الحربية؛ وهو ما انعكس سلبا على الإنتاج الاقتصادي ففي منطقة الزاب مثلا تقننت هذه الضرائب بموجب معاهدة 1853 التي فرضت على السكان ما مقداره 4500 فرنك ذهبي؛ ولترتفع في

1- المرجع نفسه، ص، 49. وفي نفس الصفحة يشير الباحث في الهامش أن هناك الكثير من الأسلاب والمبيعات لم تسجل بمصلحة الدومين، من ذلك مثلا ثمن البغال التي أخذت من بني بوسليمان وبيعت ببسكرة من طرف صبايحية المكتب العربي. وقيمتها 3.945.85 فرنك ومبيعات أخرى بتاريخ 07 أوت قيمتها 6150 فرنك وأخرى كذلك بتاريخ 13 أوت بقيمة 2672.30 أي ما مجموعه: 12.777.15 فرنك لم يسجل بأملاك الدولة. هذا علاوة على المبالغ الكبيرة التي سلبت من طرف القياد وجماعتهم.

2- المرجع نفسه، ص، 39.

سنة 1919 إلى حوالي 13500 فرنك[1]. وليت الأمر توقف عند هذا الحد بل فرضت ضرائب حتى على الخماسين الذين أرغموا على دفع 12.50 فرنك للمحراث الواحد الذي لا يحرث سوى 15 هكتار لكل محراث؛[2] وتوسعت هذه الضرائب لتشمل الزكاة والعشر على المحاصيل والأنفس والحيوان.

– فرض الضرائب[3] والعقوبات الجماعية والغرامات الحربية على السكان قصد اعترافهم بالاحتلال الفرنسي[4]؛ ولتجنب مشاركتهم في المقاومة المسلحة ضد الوجود الفرنسي بالجنوب؛ على غرار ما حدث للذين شاركوا في ثورة المقراني سنة 1871 بالشمال[5]؛ ففي الجنوب أيضا تم فرض عقوبات مالية قاسية جدا ضد

1- آندري نوشي، المرجع السابق، 405.

2- صالح فركوس، المرجع السابق، ص، 205.

3- بهذا الخصوص تم فرض ضرائب قهرية زجرية ضد الجزائريين سواء في الشمال أو في الجنوب الجزائري، على كل ما يمتلكه الإنسان، الشيء الذي دفع بالعديد من المواطنين على التخلي عن ممتلكاتهم والقبول بالعمل في شكل خماسين عند الفرنسيين، وعند بعض العائلات والأسر الجزائرية الكبيرة التي تعاملت مع العدو الفرنسي، في حين فضل البعض الآخر الهجرة. وبهذا الخصوص يراجع: حزب الشعب الجزائري، لمؤلفه أحمد الخطيب، ص – – ص، 46- 47. عبد الرحمان زراقي، "الضرائب في الجزائر ما بين 1871-1914"، مجلة الباحث، ص–ص، 83-92، وهو مقال يتناول فيه تطور الضرائب الفرنسية المفروضة على الجزائريين بشكل مفصل.

4- إن النظام القضائي للمكاتب العربية شكل قاعدة الغالب فالقمع الجماعي كان مسلطا على كل قبيلة يشارك أبناؤها في مقاومة التوسع الفرنسي، ونظرا لعدم تمكن الإدارة الفرنسية من توفير الأمن راحت تصدر العديد من المراسيم الزجرية والقمعية ضد كل المخالفات ومهما كان نوعها. يراجع: المختصر غي تاريخ الجزائر من عهد الفينيقيين إلى خروج الفرنسيين (814 ق.م – 1962)، ص، 204.

5- من بين الإجراءات التي اتبعتها فرنسا هو فرض غرامات ثقيلة ضد الثوار الذين شاركوا إلى جانب المقراني، كما أن العديد منهم تم نفيهم خارج الوطن. وبخصوص هذه الثورة يراجع: ثورة 1871 للطاهر أوصديق.

الأعراش والقبائل التي شاركت في انتفاضة الأوراس سنة 1879[1]، التي شملت بعض الأعراش التابعة للدوائر العسكرية الآتية:[2]

01- الجدول الأول: المتعلق بدائرة باتنة العسكري.

قبائل الأعراش والدوائر	المبلغ الأساسي للضرائب	الغرامة الحربية بالفرنك	ملاحظات
لحاحة	5.274.45	52.744.50	10 مرات الضريبة
أولاد موسى بن عبد الله	1.654	11.515	07 مرات الضريبة
بني بوسليمان	1.599.70	11.197.90	نفس الشيء
أولاد عيشة	2.236.10	15.652.70	نفس الشيء
الزحاحفة	8.354.40	58.480.80	نفس الشيء
أولاد رابح	3.277.75	12.911	04 مرات الضريبة
أولاد رابح	3.525.40	14.401.60	نفس الشيء
تاخريبت	3.599.25	14.397	نفس الشيء
الحدادة	4.141.30	16.565.20	نفس الشيء
المجموع		207.565.20	

1- فمن بين هذه العقوبات السجن المؤبد والحبس لمدة عشرين سنة، مع النفي إلى كورسيكا أو إلى كيان بغويانة الفرنسية بأمريكا الوسطى. وللمزيد أكثر حول هذه العقوبات يُنظر: ثورة الأوراس 1879، لمؤلفه زوزو عبد الحميد.

2- زوزو، عبد الحميد: نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر، المرجع السابق، ص-ص، 190-191.

02- الجدول الثاني:

المتعلق بدائرة بسكرة العسكرية.

قبائل الأعراش والدوائر	المبلغ الأساسي للضرائب	الغرامة الحربية بالفرنك	ملاحظات
أولاد قاسم	880	17.600	20 مرة الضريبة (صنف خاص)
أهل جار الله	465	9.300	نفس الشيء
تكوت	720	14.400	نفس الشيء
المرادسة	775	7.750	10 مرات الضريبة
أولاد سليمان بن حمزة	1280	12.800	نفس الشيء
أولاد عبد الرحمان	1515	10.605	نفس الشيء
أولاد سالم بن عباس	970	6.790	نفس الشيء
أولاد سعدية	340	2.380	نفس الشيء
بني ملكان	2400	16.800	نفس الشيء
السراحنة وأولاد سيدي محمد	3300	23.100	نفس الشيء
الشرفة	2160	8.640	04 مرات الضريبة
السعادنة	1425	2.850	مرتان مبلغ الضريبة
الزكارة	500	1.000	مرتان مبلغ الضريبة
أولاد عبد الرزاق	740	1.480	مرتان مبلغ الضريبة
المجموع		135.495	

03 – الجدول الثالث

المتعلق بدائرة خنشلة العسكرية

قبائل الأعراش والدوائر	المبلغ الأساسي للضرائب	الغرامة الحربية بالفرنك	ملاحظات
تاوزيانت (الشرفة)	811.20	8.112	10 مرات الضريبة
ملاقو	2.2000	4.000	مرتان مبلغ الضريبة
		12.100	

مجمل الغنائم الحربية بالفرنك

دائرة باتنة	207.565.70	
دائرة بسكرة	135.495	
دائرة خنشلة	121.112	
المجموع:	355.172.70	

لاشك أن هذه العينة من الغرامات الحربية قد كان لها انعكاس سلبي وبشكل كبير جدا على حياة المواطنين؛ الذين أصبحوا عاجزين فعلا عن مباشرة نشاطهم الفلاحي والتجاري، بل الكثير منهم وجد نفسه مدين لأصحاب النفوذ والسلطان الذين تعاونوا مع الطرف الفرنسي، ونظرا لتفاقم حجم هذه الديون اضطر الكثير من الفلاحين إلى بيع أملاكه بأثمان زهيدة جدا؛ في حين ذهب البعض الآخر إلى رهن أملاكه وحتى نفسه لهذه الطبقة الأرستقراطية التي أوجدها الاستعمار الفرنسي.

إن هذه الأوضاع الاقتصادية المتدهورة قد انعكست سلبا على الحياة الاجتماعية. وعليه يجدر بنا طرح السؤال الآتي وهو إلى أي مدى ساهمت سياسة التوسع الفرنسي بالجنوب في انهيار المجتمع الجزائري الصحراوي؟. وما هي مظاهر هذا الانهيار؟ هذا ما سأحاول الإجابة عنه في العنصر الموالي.

03- النتائج الاجتماعية:

قبل الحديث عن الآثار السلبية التي مست المجتمع الجزائري في الجنوب؛ أود الإشارة فقط إلى طبيعة هذا المجتمع الذي هو الآخر يشكل لنا قطعة فسيفسائية رائعة جدا، ويتجلى ذلك من خلال عديد التشكيلات الاجتماعية التي يتشكل منها؛ ومن تنوع مصادره الثقافية والدينية العريقة جدا. وهو في عمومه عبارة من قبائل كثيرة منتشرة عبر أقاليم المناطق الصحراوية التي سبقت الإشارة إليها، هذه القبائل لها نسيج اجتماعي راق جدا يبدأ من شيخ القبيلة وينتهي بآخر فرد في القبيلة. والشيء الملفت للانتباه هو سيطرة الطابع الروحي على هذا المجتمع الذي تعددت انتماءات أفراده الروحية إلى الطرق الصوفية والزوايا التي كانت منتشرة هناك[1].

ومن حيث العلاقات الاجتماعية فهو متماسك جدا نظرا لتلك الروابط التي تربط بين أفراده خاصة منها الانتماء الروحي وروابط المصاهرة التي كانت منتشرة بشكل كبير بين أفراده. مع تسجيل بعض الخصومات التي كانت تنشأ بين الحين والآخر بين بعض القبائل الرحل والسكان المستقرين في الواحات والقصور، وعلى سبيل المثال نسجل ذلك الصراع الذي كان قائما بين قبائل الحميان المتنقلة وسكان مدينة ورقلة لأن هذه القبيلة كانت تقوم بين الحين والآخر بالهجوم وقت جني

1- من بينها الشاذلية والرحمانية والكرزازية والأحمدية والشيخية والطيبية والحنصالية والقادرية والزيانية والتيجانية والرحمانية والسنوسية...الخ. وللمزيد من المعلومات حول هذا العنصر يراجع الدراسة القيمة التي أنجزها الدكتور يحي بوعزيز في كتابه بعنوان: مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، ص-ص، 127-144.

محصول التمور وتستولي على كم هائل منها، ونظرا لشدة بأس هذه القبيلة اضطر السكان إلى مهادنة قوات الاحتلال الفرنسي مقابل توفير الأمن لهم.(1)

إن هذه التركيبة المتماسكة لمجتمع الجنوب لم تكن في صالح عملية التوسع الفرنسي في الجنوب الجزائري، بل ساهمت إلى حد بعيد في تأخير هذه العملية عشرات السنين والأدل على ذلك هو عدم تمكن القوات الفرنسية من فرض سيطرتها المطلقة على الصحراء الجزائرية وفي عز قوتها العسكرية التي سخرتها للقضاء على الثورة التحريرية (1954-1962) فيما بعد. وأمام هذا التماسك والتضامن الجزائري اتبعت فرنسا أثناء عملية توسعها أساليب متعددة منها ما سبق ذكره في الفصول السابقة؛ ولذلك سأكتفي هنا بالإشارة إلى ما ترتب عنها؛ ضمن النقاط الآتية.

1- تفتيت المجتمع الجزائري إلى ثلاثة أقسام؛ قسم أعلن صراحة عن موالاته لها، وقسم أعلن عن مقاومته لها، وقسم وهو قليل جدا ركن إلى الحياد. ولقد ساهم القسم الأول وبطريقة غير مباشرة في ترسيخ الوجود الفرنسي بالتراب الجزائري، طيلة خدمته ووفائه للفرنسيين ولكن للأسف الشديد بعد أن تمكنت فرنسا من فرض وجودها تخلت عن هذه الفئة!! وبهذا الخصوص يذكر لنا الدكتور أبو القاسم سعد الله نقلا عن "سيروكا" ما يلي. (أن معرفة خلفيات العائلات الرئيسية في هذه البلاد (الجزائر) وعداواتهم وصدقاتهم وثاراتهم، تجعلنا قادرين أكثر على حكمهم، كما أن معرفتنا عن كثب لتاريخ البلاد المغلوبة تقينا غالبا من الوقوع في الخطأ)).(2)

وخلاصة القول إن هذه الزعامات لم تكن خدمت نفسها وحافظت على ممتلكاتها ولا هي وقفت موقف مشرف يحفظ لها ماء وجهها. ونظرا لعجز الإدارة

1- احميده، عميراوي: فواصل من الفكر والتاريخ، دار البعث، قسنطينة، 2002، ص، 128.

2- أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، الجزء الأول، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1992، ص، 346.

الفرنسية في توفير الأمن والاستقرار لجأت إلى تعيين العديد من هذه الزعامات في مناصب راقية جدا.[1]

2- إثارة التراع والشقاق بين الأسر الكبيرة كذلك التراع الذي كان قائما بين عائلة بوعكاز ابن قانة في منطقة بسكرة والأوراس، وما حدث في جنوب وهران عند عائلة أولاد سيدي الشيخ. وللأسف الشديد فإن هذا التراع ساهم بشكل مباشر في تمزيق روابط هذه الأسر والتمكين للاستعمار الفرنسي بالجنوب الجزائري[2].

وليت البعض من هذه العائلات توقفت عند هذا الحد بل نجد بعضها الأخر عارض أصلا فكرة الجهاد في سبيل تحرير البلاد وهذا الصنف سبق الحديث عنه ضمن ما عرف بمحاولة فرنسا الرامية إلى إبطال فريضة الجهاد، وإضافة إلى تلك الشخصيات التي عارضت فكرة الجهاد، تظهر لنا شخصية مُدجنة هي محمد بن بلقاسم الحملاوي رئيس إخوان الطريقة الرحمانية[3] بوسط البلاد؛ الذي اتخذ موقفا معاديا من ثورة الشيخ بوعمامة، وحث في إحدى رسائله- إلى سي يحي بن أقو يدر بن عبد الله – جميع أتباعه بمسالمة الفرنسيين. ومن ضمن ما جاء فيها بهذا الخصوص ((... وأن رجلا يُقال له أبو عمامة خرج من عمالة وهران على رأي الدولة

1- من بين هؤلاء أذكر: تعيين لبن عيسى – هو باش حامبا أيام حكم الحاج أحمد باي- خليفة على الساحل الشرقي بعد احتلال مدينة قسنطينة في سنة 1837، وتكليف ابن الحملاوي في سنة 1838 بضمان أمن الطريق الرابط بين قسنطينة وسطيف، وتعيين الشيخ المقراني على منطقة مجانة نظرا للنفوذ الكبير الذي كان يتمتع به في هذه الناحية، وتعيين ابن قانة واعتماده في منصب شيخ العرب على منطقة الزاب، وهذا الأخير هو الذي يهمنا كون تعيينه في منطقة الجنوب. يراجع: مقال للدكتور أحميده عميراوي، "السياسة الإدارية في الشرق الجزائري من خلال مشروع لويس بلانكي"، المصادر، العدد السادس، محرم 1423هـ/ مارس 2002م، ص-ص، 85-87.

2- بخصوص هذا النزاع يذكر الدكتور أبو القاسم سعد الله في كتابه الحركة الوطنية، الجزء الأول تفاصيل كثيرة حوله. ينظر عنصر الزعامات المُدجنة، ابتداء من الصفحة رقم 345.

3- من ما هو معلوم لدينا – حسب المعلومات التي بحوزتنا – أن الطريقة الرحمانية كان لها موقف مُشرف في مقاومة الاحتلال الفرنسي بالجزائر.

الفرانساوية واتبعته شرذيمة من العرب حكم وهران من لا عقل له منهم... ولو كان له عقل ما أظهر محاربة الدولة بل يلتجئ لهم بطلب المن منهم والعافية مع صدقه وصفاء سريرته...))[1].

ومن خلال هذا الاقتباس تتضح لنا بعض النوايا السيئة المُبيتة ضد حركة الجهاد، ويتضح لنا أيضا من خلال الألفاظ التي استخدمها في سبيل تحييد أنصاره مدى قمة الانحطاط الخلقي الذي وصل إليه محمد بن سالم. وتظهر الألفاظ المشينة في المثال غير المنطقي الذي ضربه لأنصاره، ومن خلاله حكم على بوعمامة بضعف عقله وسفاهة رأيه. ولكن الحقيقة هي عكس ذلك تماما ويبقى السؤال المطروح أيعقل أن نُهين هذه الشخصية الوطنية والمتشبعة بالروح الجهادية بهذه الكيفية؛ والذي قضى أكثر من 27 سنة من عمره في مقاومة الاحتلال الفرنسي (1881-1908). وهي رسالة مُطولة أدرجتها ضمن الملحق رقم 201.

3- النفي والإبعاد الذي استهدف الكثير من زعماء المقاومة في الجنوب الجزائري، وهذه النتيجة الحتمية في نظر الفرنسيين تأتي عقب كل ثورة أو انتفاضة شعبية والغاية منها الزجر والردع لاحتواء حركة المقاومة. واكتفى هنا بالإشارة إلى أحد نماذج –محاضر– النفي والإبعاد الذي استهدفت أحد شيوخ الزوايا وبعض مقدميه من أولاد عبدي بدائرة باتنة العسكرية؛ والوارد ذكرهم على النحو الآتي: سي الهاشمي بن سي علي بن دردور، وعمر بن يوسف، ومحمد أمزيان بن نارة، وبوكر بن خالد. وهذا النموذج هو مُدرج ضمن الملحق رقم 02 الذي تضمن التعريف بهذه الأسماء.[2]

1- زوزو، عبد الحميد: ثورة بوعمامة 1881-1908، جانبها العسكري 1881-883، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1986، ص-ص، 51-53.

2- المرجع نفسه، ص-ص، 51-53.

4- تدهور وضعية السكان المعيشية بشكل رهيب، وعليه فالمناطق الجنوبية أصبحت تحت وطأة الفقر والمجاعة والأمراض والأوبئة الفتاكة، بعدما صُدرت منهم كل ممتلكاتهم وتعرضهم لمختلف وسائل الاستعمار الفرنسي البشعة[1]، الأمر الذي أدى إلى تناقض عدد السكان ولقد سجل "سباتي" – وهو أحد المختصين في شؤون المناطق الجنوبية – هذا التناقض على سكان وواحات قورارة وتوات وتيديلكيت الذين كانوا في حدود أربعمائة ألف نسمة عند منتصف الثمانينات من القرن 19م، ليصبح حسب تعداد سنة 1906 لا يتجاوز الستين ألف نسمة ومعظمهم لا يجد ما يسد به رمقه[2].

كما يسجل لنا آندري نوشي بشأن هذا التراجع الذي استهدف سكان بعض الواحات الواقعة في الجنوب الغربي في ما يلي ((...فانخفض عدد سكان توات وغورارة وساورة واندثر منهم 4000 ساكنا على 8700 من سنة 1906 إلى سنة 1921))[3].

ولتثمين هذا الواقع المرير المُعاش لدى سكان الجنوب أنقل بعض ما ورد في إحدى المحاضرات التي ألقاها الأمير خالد أمام جمع غفير من المهاجرين بفرنسا في سنة 1924- وهي خارج الزمن المحدد لدراستنا ولكنها تعكس هذا الواقع بصدق-. ((...إن أهالي هذه المناطق (أقاليم الجنوب) هم تحت رحمة حكامهم الطغاة في دوائرهم فهؤلاء الضباط لهم صلاحيات مطلقة يمددونها ويقلصونها حسب هواهم. إن هذا النظام لهو أشع من قانون الأهالي لا يخضع لرقابة ولا له حدود، إن البدوي الراحل قد دُمر وحُوِّل إلى متسوّل أو إلى سارق ليسد رمقه فالوباء لم يغادر هذه المناطق منذ سنة 1920))[4].

ضمن جدول، وإدراجه ضمن جدولا هو من اجتهادنا لتفادي بعض التداخلات التي قد يُحدثها جهاز الحاسوب في ما تضمنه.

1- من المسلم به لدى الكثير من الجزائريين أن حرب الإبادة الجماعية مارسها الجنرال دوغول فقط أثناء الثورة التحريرية، ولكن الحقيقة هي عكس ذلك تماما؛ فالجرائم التي مارسها جنود الاحتلال الفرنسي في السبعين سنة الأولى من الاحتلال (1830-1900)، لا تكاد توصف.

2- جمال، قنان: قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصر، المرجع السابق، ص، 150.

3 الجزائر بين الماضي والحاضر، المرجع السابق، ص، 406

05- الهجرة:

منذ القديم ظل الإنسان الجزائري في الجنوب الكبير متمسكا بأرضه رغم الظروف الطبيعية القاسية؛ ولكن مع امتداد التوسع الفرنسي نحو الجنوب وممارسة لأبشع وسائل القمع والحرمان والاضطهاد والقتل الجماعي، وجد هذا الإنسان نفسه مُخيرا بين أربعة خيارات:

1- الاستسلام للفرنسيين والاعتراف بالأمر الواقع وذلك عن طريق العديد من المعاهدات والاتفاقيات.

2- مقاومة الاحتلال الفرنسي والاعتراف بحياة الحل والترحال للاحتماء من العدو الفرنسي كما فعلت الكثير من القبائل في الجنوب الغربي الجزائري.

3- موالاة الفرنسيين والتعاون معهم ضد إخوانهم من الجزائريين وهو الشيء الذي أقدمت عليه العديد من الأسر والعائلات الكبيرة.

4- الهجرة خارج التراب الوطني بعد أن ضاقت سبل العيش وفقد الإنسان كل ممتلكاته، إما بالمصادرة أو بالسطو أو بالظروف الطبيعية والمجاعات التي عصفت به؛ وللعلم فإن هذا الخيار لم يكن إراديا وبالتالي فهذه الهجرة هي هجرة غير إرادية تارة جماعية وتارة أخرى فردية. فهناك الكثير من الأسر والعائلات الجزائرية التي هاجرت من هذه الأقاليم الصحراوية نحو دول الجوار كتونس والمغرب وليبيا وبعض الدول الإفريقية، ودول المشرق العربي. وأكتفي هنا بذكر بعض العينات منها فقط.

ففي الجنوب الشرقي الجزائري نسجل هجرة فرقة اللحالحة ومرداس وبنو صالح والنمامشة وسيدي يحي بوطالب والربايع والهمامة والزغالة والفراشيش...الخ نحو تونس، ومن الوسط نسجل أسرة بوعكاز وبنو اسحق والمكي بن عزوز، ومن الجنوب الغربي الجزائري نسجل العديد من الأسر التابعة لقبائل التخوم الصحراوية

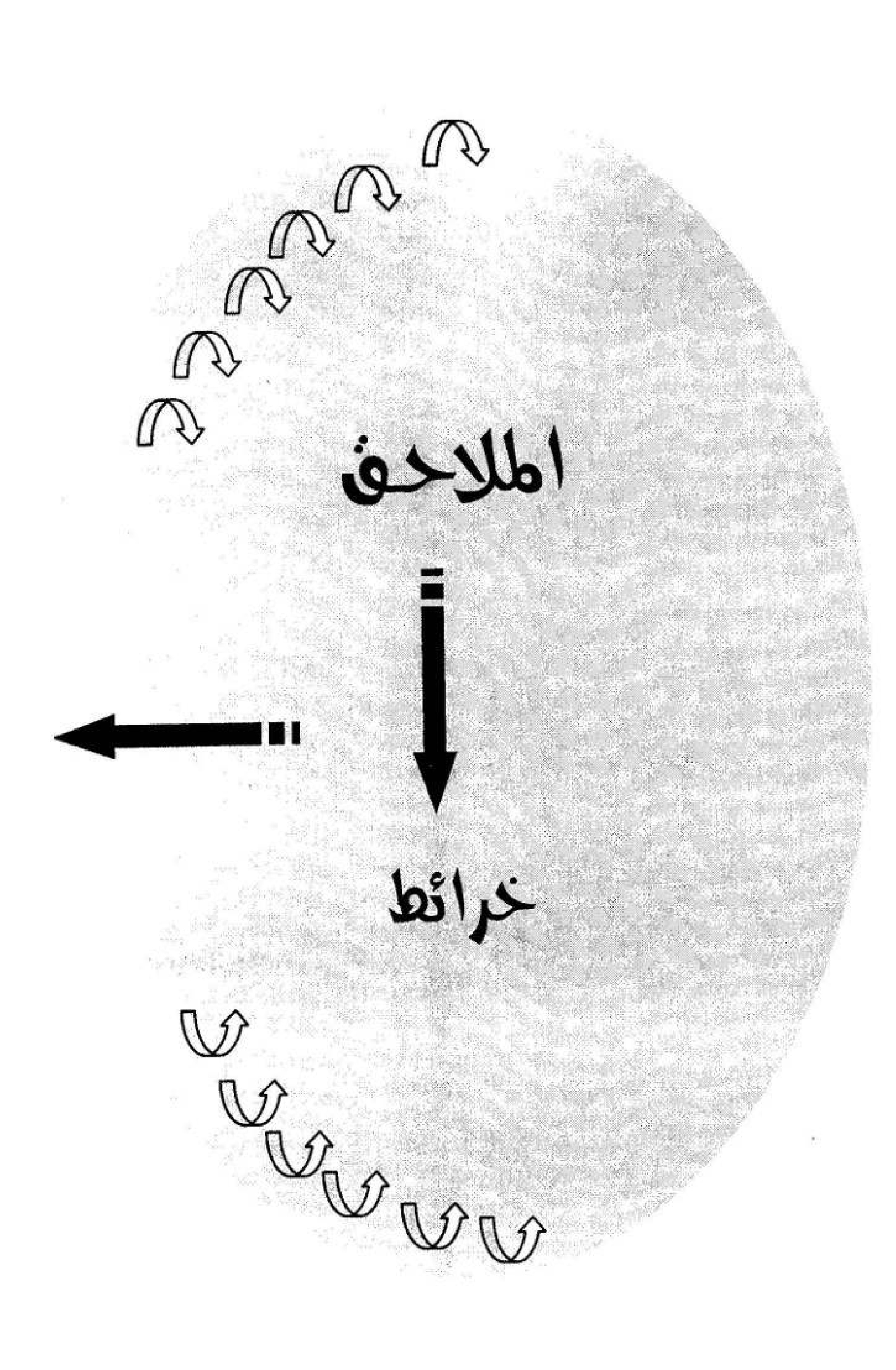
الجزائرية المغربية وللصحراء الغربية، والتي من بينها: بنو جيل وأولاد جرير وأولاد سيدي الشيخ الغرابة...الخ.

وخلاصة القول فإن هذه النتائج المختصرة ساهمت إلى حد بعيد في مد التوسع الفرنسي ليس نحو الجنوب الجزائري فحسب بل طال دول الجوار كتونس في سنة 1881 والمغرب الأقصى في سنة 1912، وبقية الدول الإفريقية المتاخمة للجزائر مثل مالي والنيجر وتشاد[1]، وبذلك يكون التوسع الفرنسي قد تمكن من بسط سيطرته على جزء كبير جدا من الصحراء الإفريقية الكبرى وظل مُستغلا لثرواتها الطبيعية والبشرية والاقتصادية إلى غاية مطلع النصف الثاني من القرن 20م؛ أين بدأت فرنسا تفقد مواقعها في الصحراء بفعل انتشار الحركات التحررية[2] وظهور العديد من الزعماء الوطنيين[3]، وبفعل نمو الوعي القومي والسياسي لهذه الدول وخروج فرنسا منهكة القوى بعد الحرب العالمية الثانية (1939-1945)، ولولا هذه المعطيات وإرادة الشعوب التي لا تُقهر لظلت فرنسا وغيرها من الدول الاستعمارية محتفظة بمستعمراتها إلى حد الآن.

1- من بين الدول الإفريقية التي احتلتها فرنسا خلال فترة بحثنا (1844-1914): مالي سنة 1857، والنيجر 1897، وموريطانيا 1902، وتشاد 1899، وجمهورية إفريقيا الوسطى 1896، ومدغشقر 1883، والكونغو 1819...الخ.

2- مثل استقلال سوريا ولبنان في سنة 1946، والهند والباكستان 1947، والهند الصينية 1954، والسنغال وساحل العاج ومالي والبنين وغينيا والنيجر وبوركينا فاسو وموريتانيا والطوغو في سنة 1960.

3- ومن أبرز هذه الشخصيات نذكر نهرو رئيس المؤتمر الهندي ومحم علي جناح رئيس الرابطة الاسلامية في باكستان واحمد سوكارنو في اندونسيا، أما في إفريقيا فنذكر علال الفاسي في المغرب وبورقيبة في تونس ومحمد البشير الابراهيمي وابن باديس ومصالي الحاج وفرحات عباس في الجزائر. ونكروما في ساحل الذهب وجومو كينياتا في كينيا واحمد سيكوتوري في غينيا. يراجع بخصوص الحركات التحررية في إفريقيا وآسيا: تاريخ الاستعمار والتحرر في إفريقيا وآسيا، الدكتور زوزو عبد الحميد.



الملاحق
أ
خرائط



تضاريس صحراء الجزائر
الأغواط
بشار
الصحراء المنخفضة
الوادي
توقرت
حاسي مسعود
غرداية
العرق الغربي الكبير
العرق الشرقي الكبير
تيميمون
تادمايت
عرق الشاش
جانت
المرتفعات
الحمادة
الشطوط والسبخات
عروق
أروق
100 كلم

الشكل رقم 01



متوسط المطر السنوي في الصحراء
تادمايت
تامنغست
100 - 200 ملم
50 - 100 ملم
20 - 50 ملم
- 20 ملم

الشكل رقم 02

الأسمطة المائية في الصحراء

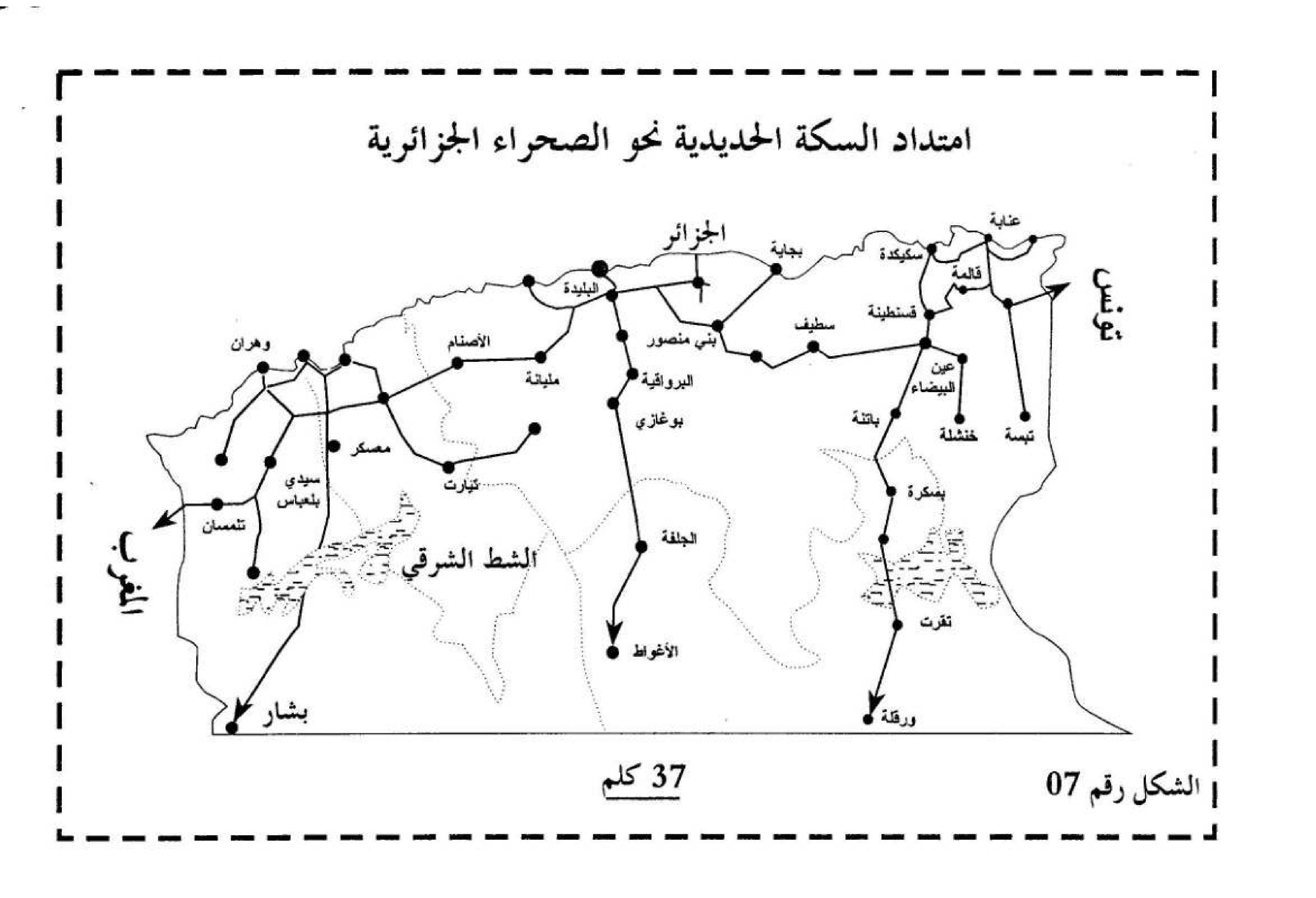


الشكل رقم 05

منافذ توغل الإستعمار الفرنسي في الصحراء

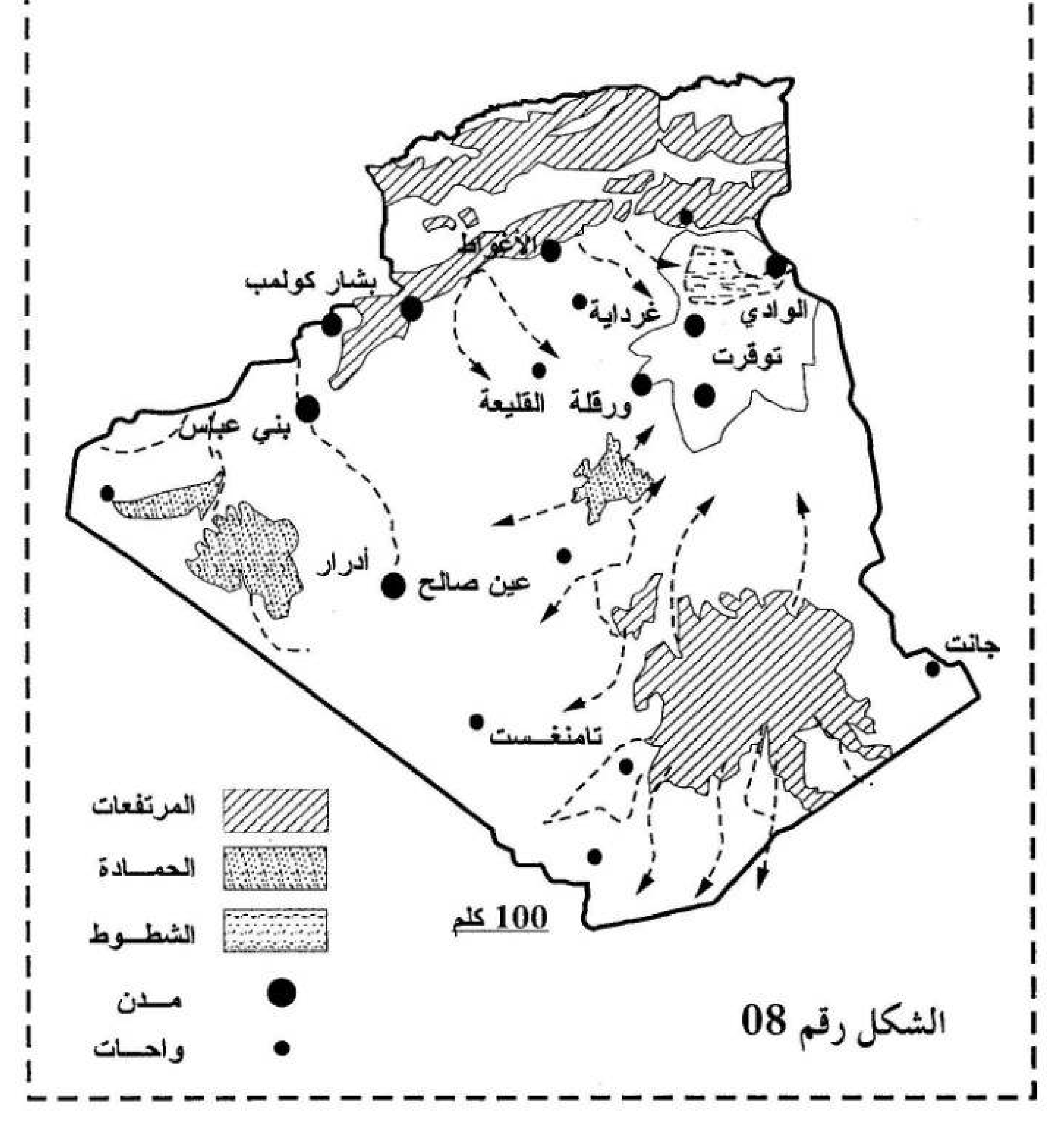
عنابة
الجزائر
الأغواط
بشار كولمب
أغادير
الوادي
غرداية
القليعة
توقرت
ورقلة
بني عباس
فور فلاتر
فزان
أدرار
عين صالح
رقان
جانت
نواقشط
تامنغست
100 كلم
قاو
زندار

الشكل رقم 06

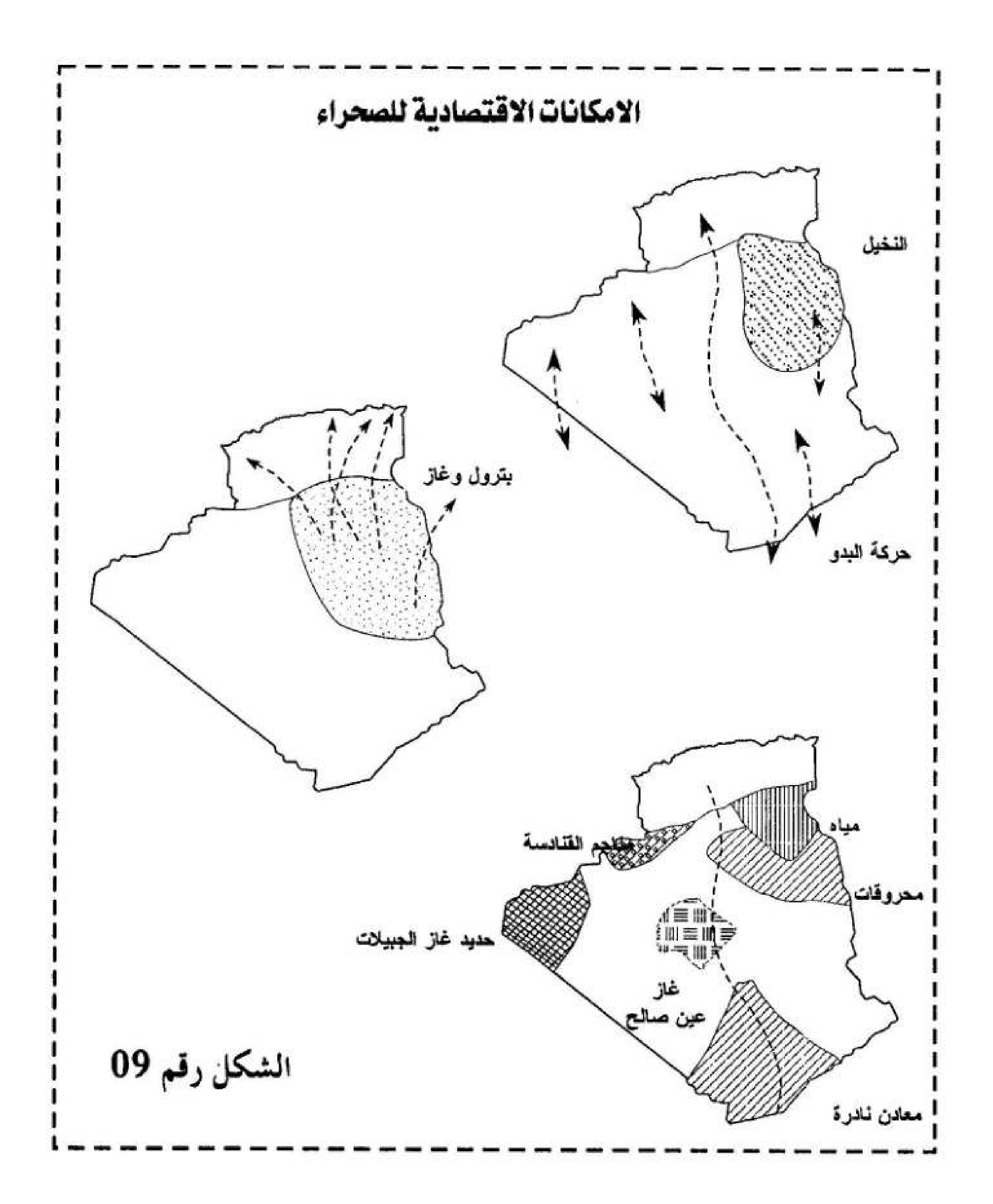


امتداد السكة الحديدية نحو الصحراء الجزائرية
تونس
المغرب
عنابة
سكيكدة
قالمة
قسنطينة
تبسة
عين البيضاء
خنشلة
باتنة
بسكرة
تقرت
ورقلة
بجاية
سطيف
الجزائر
بني منصور
البليدة
البرواقية
بوغازي
الجلفة
الأغواط
الأصنام
مليانة
تيارت
معسكر
وهران
سيدي بلعباس
تلمسان
الشط الشرقي
بشار
37 كلم

الشكل رقم 07



مدن و واحات الصحراء في عهد الاستعمار الفرنسي
الأغواط
بشار كولمب
غرداية
الوادي
توقرت
ورقلة
القليعة
بني عباس
أدرار
عين صالح
جانت
تامنغست
100 كلم
المرتفعات
الحمادة
الشطوط
مدن
واحات
الشكل رقم 08


الامكانات الاقتصادية للصحراء
النخيل
حركة البدو
بترول وغاز
مياه
القنادسة
محروقات
حديد غاز الجبيلات
غاز
عين صالح
معادن نادرة

الشكل رقم 09



يتضمن هذا الكتاب...

معلومات جغرافية واجتماعية وتاريخية عن الصحراء الجزائرية، خلال التوسع الأوروبي فيها منذ عام 1844 إلى عام 1916 هذا التوسع الذي كان سياسيا وإداريا بواسطة الحملات العسكرية، والقوافل التجارية. وتنصيريا بواسطة "المبشرين" وعلى رأسهم شارل دي فوكو...


ISBN 9947262191
9 789947 262191